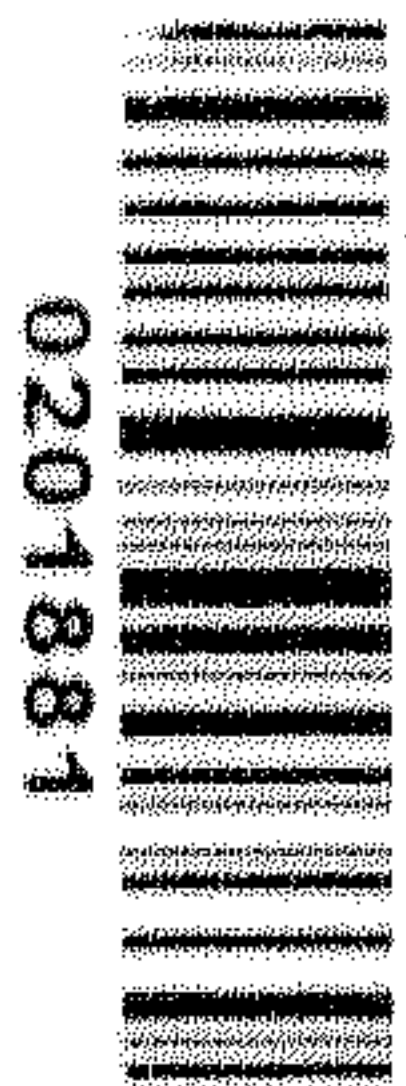


عبدان خليل عبدان

الاجتهاد المكتسب

مكتبة الثقافة



020-1881

Bibliotheca Alexandrina

جُبران خليل جُبران

الأمم المتحدة للاكتسرة

الطبعة الثانية والثلاثون
بيروت - لبنان

الى التي تحلق الى الشمس
بأجنان جامدة ، وتقبض
على النار بأصابع غير
مرتعشة ، وتسمع نفمة
الروح « الكلي » من وراء
ضجيج العميان وصراخهم
الى M.E.H أرفع
هذا الكتاب .

جبران

فهرست

<u>صفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٥	كلمة الناشر
٧	توطئة
١١	الكآبة الخرساء
١٥	يد القضاء
٢٠	في باب الهيكل
٢٥	الشعلة البيضاء
٢٩	العاصفة
٤٣	بحيرة النار
٦١	أمام عرش الموت
٧٧	بين عشتروت والمسيح
٨٤	التضحية
٩٥	المنقذ

توطئة



كنت في الثامنة عشرة عندما فتح الحب عيني بأشعته
السحرية ، ولمس نفسي لأول مرة بأصابعه النارية . وكانت
سلمى كرامه المرأة الأولى التي أيقظت روحي بمحاسنها ،
ومشت أمامي إلى جنة العواطف العلوية ، حيث تمر الأيام
كالأحلام وتنقضي الليالي كالأهراس .

سلمى كرامه هي علمتي عبادة الجمال يجالها ، وأرتقي
خفايا الحب بانعطافها ، وهي التي أنشدت على مسغمي أول
بيت من قصيدة الحياة المعنوية .

أي فق لا يذكر الصبية الأولى التي أبدلت غفلة شيبته
بيقظة هائلة بلطفها ، جارحة بعدوبتها ، فتاكة بجلاوتها ؟ من
منا لا يذوب حيناً إلى تلك الساعة الغريبة التي إذا انتبه
فيها فجأة رأى كليته قد انقلبت وتحولت ، وأعماقه قد
اتسعت وانبسطت وتبطننت بانفعالات لذينة بكل ما فيها من
مرارة الكتمان ، مستحبة بكل ما يكتنفها من الدموع والشوق
والسهاد ؟

لكل فق سلمى تظهر على حين غفلة في ربيع حياته وتجعل
لانفراده معنى شعرياً وتبدل وحشة أيامه بالأنس ، وسكينة
لياليه بالأنغام .

كنت حائراً بين تأثيرات الطبيعة وموجيات الكتب
والأسفار عندما سمعت الحب يهمس بشفتي سلمى في آذان
نفسي ، وكانت حياتي خالية مقفرة باردة شبيهة بسبات آدم
في الفردوس عندما رأيت سلمى منتصبه أمامي كجمود النور .
فسلمى كرامه هي حواء هذا القلب المملوء بالأسرار والعجائب ،
وهي التي افهمته كنه هذا الوجود وأوقفته كالمرآة أمام
هذه الأشباح . حواء الأولى اخرجت آدم من الفردوس
بإرادتها وانقياده ، أما سلمى كرامه فأدخلتني الى جنة الحب
والطهر بجلاوتها واستعدادي ، ولكن ما أصاب الإنسان
الأول قد أصابني ، والسيف الناري الذي طرده من الفردوس
هو كالسيف الذي أخافني بلعمان حده وأبعدني كرهاً عن
جنة المحبة قبل أن أخالف وصية وقبل أن أذوق طعم ثمار
الخير والشر .

واليوم ، وقد مرت الأعوام المظلمة طامسة بأقدامها
رسوم تلك الأيام ، لم يبق لي من ذلك الحلم الجميل سوى
تذكارات موجعة ترفرف كالأجنحة غير المنظورة حول
رأسي مثيرة تنهدات الأسى في أعماق صدري مستقطزة
دموع اليأس والأسف من أجناني .. وسلمى - سلمى

الجميلة العذبة قد ذهبت إلى ما وراء الشفق الأزرق ولم يبق
من آثارها في هذا العالم سوى غصات أليمة في قلبي وقبر
ونخامي منتصب في ظلال أشجار السرو . فذلك القبر وهذا
القلب هما كل ما بقي ليحدث الوجود عن سلمى كرامه ،
غير أن السكينة التي تخفر القبور لا تفشي ذلك السر المصون
الذي أخفته الآلهة في ظلمات التابوت ، والأغصان التي
امتصت عناصر الجسد لا تبوح بحفيها مكنونات الحفرة .
أما غصات هذا القلب وأوجاعه فهي التي تتكلم وهي التي
تنسكب الآن مع قطرات الحبر السوداء معلنة النور أشباح
تلك المأساة التي مثلها الحب والجمال والموت .

فيا أصدقاء شيبتي المنتشرين في بيروت ، إذا مررتم بتلك
المقبرة القريبة من غابة الصنوبر ادخلوها صامتين وسيروا ببطء
كيلا تزعج أقدامكم رفسات الراقدين تحت أطباق الثرى ،
وقفوا متهيئين بجانب قبر سلمى وحيوا عني التراب الذي ضم
جثمانها ثم اذكروني بتنهدة قائلين في نفوسكم: هنا دفنت آمال
ذلك الفتى الذي نفته صروف الدهر الى ما وراء البحار ،
وهنا توارت أمانيه وانزوت أفراحه وغارت دموعه
واضحلت ابتساماته ، وبين هذه المدافن الخرساء تنمو كآبته
مع أشجار السرو والصفصاف ، وفوق هذا القبر ترفرف
روحه كل ليلة مستأنسة بالذكرى ، مرددة مع أشباح الوحشة
ندبات الحزن والأسى ، نائحة مع العصور على ضيعة كانت

بالأمس نعمة شجية بين شفتي الحياة فأصبحت اليسوم سرأ
صامتاً في صدر الأرض .

استعطفكم يا رفاق الصبا بالنساء اللواتي احبتهم " قلوبكم ان
تضعوا أكاليل الأزهار على قبر المرأة التي أحبها قلبي -- فرب
زهرة تلفونها على ضريح منسي تكون كقطرة النسيدي التي
تسكبها أجفان الصباح بين أوراق الوردة الذابلة .



الكتابة الخرساء



أنتم أيها الناس تذكرون فجر الشبيبة فرحين باسترجاع
رسومه متأسفين على انقضائه ، أما أنا فأذكره مثلما يذكر
الحرمعتق جدران سجنه وثقل قيوده . أنتم تدعون تلك
السنين التي تجيء بين الطفولة والشباب عهداً ذهبياً يهزأ بمتاعب
الدهر وهو أجسه ويطير مرفرفاً فوق رؤوس المشاغل والهموم
مثلما تجتاز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة سائرة نحو البساتين
المزهرة ؛ أما أنا فلا أستطيع أن أدعو سني الصبا سوى
عهد آلام خفية خرساء كانت تقطن قلبي وتثور كالعواصف
في جوانبه وتتكاثر تامة بنموه ، ولم تجد منفذا تنصرف منه
إلى عالم المعرفة حتى دخل إليه الحب وفتح أبوابه وأثار
زواياه . فالحب قد أعتق لساني فتكلمت ومزق أجنفاني
فبكيت وفتح حنجرتي فتنهدت وشكوت .

أنتم أيها الناس تذكرون الحقول والبساتين والساحات
وجوانب الشوارع التي رأت ألعابكم ومهمت همس طهركم ،
وأنا أيضاً أذكر تلك البقعة الجميلة من شمال لبنان ، فما

أغمضت عيني عن هذا المحيط إلا رأيت تلك الأودية المملوءة
 سحراً وهيبه، وتلك الجبال المتعالية بالمجد والعظمة نحو العلاء،
 ولا سمعت أذني عن ضجة هذا الاجتماع إلا سمعت خريز تلك
 السواقي وحفيف تلك النصوص . ولكن هذه المحاسن التي
 أذكرها الآن وأتشوق إليها تشوق الرضيع إلى ذراعي أمه هي
 هي التي كانت تعذب روعي المسجونة في ظلمة الحدائث
 مثلما يتعذب البازي بين قضبان قفصه عندما يرى أمراب
 البزاة تسبح حرة في الخلاء الواسع - وهي التي كانت تملأ
 صدري بأوجاع التأمل ومرارة التفكير وتنسج بأصابع الحيرة
 والالتباس نقاباً من اليأس والقنوط حول قلبي - فلم أذهب
 إلى البرية إلا عدت منها كئيباً جاهلاً أسباب الكتابة ، ولا
 نظرت مساءً إلى النجوم المتلونة بأشعة الشمس إلا شعرت
 بانقباض متلف ينمو لجهلي معاني الانقباض، ولا سمعت تغريدة
 الشحرور أو أغنية الغدير إلا وقفت حزينا لجهلي موحيات
 الحزن .

يقولون ان الغباوة مهد الخلو والخلو مرقد الراحة - وقد
 يكون ذلك صحيحاً عند الذين يولدون أمواتاً ويعيشون
 كالأجساد الهامدة الباردة فوق التراب ، ولكن إذا كانت
 الغباوة العمياء قاطنة في جوار العواطف المستيقظة تكون
 الغباوة أقسى من الهاوية وأمر من الموت. والصبي الحساس الذي
 يشعر كثيراً ويعرف قليلاً هو أتمس الخلوقات أمام وجه
 الشمس لأن نفسه تظل واقفة بين قوتين هائلتين متباينتين :

قوة خفيفة تخلق به في السحاب وتريه محاسن الكائنات من وراء ضباب الأحلام ، وقوة ظاهرة تقيده بالأرض وتغمر بصيرته بالغبار وتتركه ضائعاً خائفاً في ظلمة حالكة .

للكتابة ايد حريرية الملامس قوية الأعصاب تقبض على القلوب وتؤلها بالوحدة ، فالوحدة حليفة الكتابة كما أنها أليفة كل حركة روحية . ونفس الصبي المنتصبه أمام عوامل الوحدة وتأثيرات الكتابة شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الكمام ترتبش أمام النسيم وتفتح قلبها لأشعة الفجر وتضم اوراقها بمرور أخيلة المساء ، فان لم يكن للصبي من الملامي ما يشغل فكرته ومن الرفاق من يشاركه في الميول كانت الحياة امامه كحبس ضيق لا يرى في جوانبه غير انوال المناكب ولا يسمع من زواياه سوى دبيب الحشرات .

أما تلك الكتابة التي اتبعت أيام حداثتي فلم تكن ناتجة عن حاجتي الى الملامي لأنها كانت متوفرة لدي ، ولا عن افتقاري إلى الرفاق لأنني كنت أجدهم أينما ذهبت ، بل هي من اعراض علة طبيعية في النفس كانت تجيب الى الوحدة والانفراد ، وتميت في روحي الميول الى الملامي والالمام ، وتخلع عن كتفي أجنحة الصبا ، وتجعلني أمام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوئه المحزن رسوم الأشباح وألوان الغيوم وخطوط الأغصان ، ولكنه لا يجرد مراً يسير فيه جدولاً مترنماً إلى البحر .

مكذا كانت حياتي قبل أن ابلغ الثامنة عشرة، فتلك السنة هي من ماضي بمقام القمة من الجبل لانها أوقفتني متأملاً تجاه هذا العالم وأرتقي سبل البشر ومروج ميولهم وعقبات متاعبهم وكهوف شرائعهم وتقاليدهم .

في تلك السنة ولدت ثانية ، والمرء ان لم تجبل به الكتابة ويتمغض به اليأس وتضعه المحبة في مهد الاحلام تظل حياته كصفحة خالية بيضاء في كتاب الكيان .

في تلك السنة شاهدت ملائكة السماء تنظر اليّ من وراء أجفان امرأة جميلة ، وفيها رأيت أبالسة الجحيم يضجون ويتراكضون في صدر رجل مجرم - ومن لا يشاهد الملائكة والشياطين في محاسن الحياة ومكروهااتها يظل قلبه بعيداً عن المعرفة ونفسه فارغة من العواطف .



يد القضاء



كنت في بيروت في ربيع تلك السنة المملوءة بالغرائب ،
وكان نيسان قد أنبت الأزهار والأعشاب فظهرت في بساتين
المدينة كأنها اسرار تعلنها الأرض للسماء . وكانت أشجار اللوز
والتفاح قد اكلست بحل بيضاء معطرة فبانت بين المنازل
كأنها حوريات بملابس ناصعة قد بعثت بهن الطبيعة عرائس
وزوجات لابناء الشعر والخيال .

الربيع جميل في كل مكان ولكنه اكثر من جميل في سوريا ..
الربيع روح إله غير معروف تطوف في الأرض مسرعة وعندما
تبلغ سوريا تسير ببطء متلفتة الى الوراء مستأنسة بأرواح
الملوك والأنبياء الحائمة في الفضاء ، مترنمة مع جداول اليهودية
بأناشيد سليمان الخالدة ، مرددة مع أرز لبنان تذكارات المجد
القديم .

وبيروت في الربيع أجمل منها في ما بقي من الفصول لانها
تخلو فيه من أوحال الشتاء وغبار الصيف وتصبح بين أمطار
الأول وحرارة الثاني كصيبة حسناء قد اغتسلت بمياه الغدير
ثم جلست على ضفته تجفف جسدها بأشعة الشمس .

ففي يوم من تلك الأيام المفعمة بأنفاس نيسان نيسان المسكرة
 وابتساماته الهيبية ، ذهبت لزيارة صديق يسكن بيتاً بعيداً
 عن ضجة الاجتماع. وبينما نحن نتحدث راسمين بالكلام خطوط
 آمالنا وأمانينا دخل علينا شيخ جليل في الخامسة والستين من
 عمره تدل ملابسه البسيطة وملاحظته المتجمدة على الهيبية والوقار
 فوقفت احتراماً ، وقبيل ان اصافحه مسلماً تقبدم صديقي
 وقال : حضرته فارس أفندي كرامه . ثم لفظ اسمي مشفوعاً
 بكلمة ثناء ، فحدق إليّ الشيخ هنيهة لامساً باطراف اصابه
 جبهته العالية المكحلة بشعر أبيض كالثلج كأنه يريد أن يسترجع
 إلى ذاكرته صورة شيء قديم مفقود ثم ابتسم ابتسامة سرور
 وانعطاف واقترب مني قائلاً : انت ابن صديق حبيب قديم
 صرفت ربيع العمر برفقتيه ، فما أعظم فرحي بمرآك وكم أنا
 مشتاق إلى لقاء أبيك بشخصك ا

فتأثرت لكلامه وشعرت يجاذب خفي يدنني اليه بطمانينة
 مثلما تقود الفريزة العصفور إلى وكره قبيل مجيء العاصفة .
 ولما جلسنا أخذ يقص علينا أحاديث صداقته لوالدي متذكراً
 أيام الشباب التي صرفها بقربه تالياً على مسامعنا اخبار أعوام
 قضت فكفنها الدهر بقلبه وقبرها في صدره . . . ان الشيوخ
 يرجعون بالفكر إلى أيام شبابهم رجوع الغريب المشتاق إلى
 مسقط رأسه ، ويميلون الى سرد حكايات الصبا ميل الشاعر
 على تنعيم أبلغ قصائده ، فهم يعيشون بالروح في زوايا

الماضي الغابر لان الحاضر يمر بهم ولا يلتفت ، والمستقبل يبدو لأعينهم متشجاً بضباب الزوال وظلمة القبر .

وبعد ساعة مرت بين الأحاديث والتذكارات مرور ظل الأغصان على الأعشاب ، وقف فارس كرامه للانصراف ، ولما دفوت منه مودعاً أخذ يدي بيمينه ووضع شماله على كتفي قائلاً : أنا لم أرَ والدك منذ عشرين سنة ولكنني أرجو ان أتعويض عن بعاده الطويل بزياراتك الكثيرة .

فانحنيت شاكراً واعدأ بتتميم ما يجب على الابن نحو صديق أبيه .

ولما خرج فارس كرامه استزدت صاحبي من أخباره فقال بلهجة يساورها التحدر : لا اعرف رجلاً سواه في بيروت قد جعلته الثروة فاضلاً والفضيلة ماثراً . وهو واحد من القليلين الذين يجيئون هذا العالم وينغادرونه قبل أن يلامسوا بالأذى نفس مخلوق ، ولكن هؤلاء الرجال يكونون غالباً تعساء مظلومين ، لأنهم يجهلون سبل الاحتيال التي تنقذهم من مكر الناس وخبثهم ... ولفارس كرامه ابنة وحيدة تسكن معه منزلاً فخماً في ضاحية المدينة ، وهي تشابهه بالأخلاق وليس بين النساء من تماثلها رقة وجهالاً ، وهي ايضاً ستكون ناعسة لأن ثروة والدها الطائلة توقفها الآن على شفير هاوية مظلمة مخيفة .

لفظ صديقي الكلمات الأخيرة وظهرت على محياه لوائح
الغم والأسف ثم زاد قائلاً : فارس كرامه شيخ شريف القلب
كريم الصفات ولكنه ضعيف الارادة يقوده رياء الناس كالأعمى
وتوقفه مطامعهم كالأخرس . أما ابنته فتخضع ممثلة لارادته
الواهنة على رغم كل مافي روحها الكبيرة من القوى والمواهب .
وهذا هو السر الكامن وراء حياة الوالد وابنته . وقد فهم
هذا السر رجل بأتلف في شخصه الطمع بالرياء والحديث
بالدهاء ، وهذا الرجل هو مطران تسير قبائحه بظل الانجيل
فتظهر للناس كالفضائل . هو رئيس دين في بلاد الأديان والمذاهب
تخافه الأرواح والأجساد وتختر لديه ساجدة مثلما تنحني رقاب
الانعام أمام الجزار . ولهذا المطران ابن أخ تتصارع في نفسه
عناصر المفاسد والمكاره مثلما تتقلب العقارب والأفاعي على
جوانب الكهوف والمستنقعات . وليس بعيداً اليوم الذي
ينتصب فيه المطران بلبسه الحبرية جاعلاً ابن أخيه عن يمينه
وابنة فارس كرامه عن شماله رافعاً بيده الأثيمة اكليل الزواج
فوق رأسها مقيداً بسلاسل التكهن والتعزيم جسداً طاهراً
يحيقة منتنة ، جامعاً في قبضة الشريعة الفاسدة روحاً سماوية
بذات ترابية ، واضعاً قلب النهار في صدر الليل . هذا كل ما
أستطيع ان اقله لك الآن عن فارس كرامه وابنته فلا تسلفني
اكثر من ذلك لأن ذكر المصيبة يدنيها مثلما يقرب الموت
الخوف من الموت .

وحوّل صديقي وجهه ونظر من النافذة الى الفضاء كأنه
يبعث عن أسرار الأيام والليالي بين دقائق الأثير .

فهمت إذ ذاك من مكاني ، ولما اخذت يده مودعاً قلت له :
غداً أزور فارس كرامه قياماً بوعدتي له واحتراماً للتذكريات
التي ابقتها صداقته لوالدي .

فبغت بي الشاب دقيقة وقد تغيرت ملامحه كأن كلماتي
القليلة البسيطة قد أوحت اليه فكراً جديداً هائلاً ، ثم نظر
في عيني نظرة طويلة غريبة - نظرة محبة وشفقة وخوف -
نظرة نبي يرى في أعماق الارواح ما لا تعرفه الارواح ، ثم
ارتعشت شفاهه قليلاً ولكنه لم يقل شيئاً ، فتركته وسرت
نحو الباب بأفكار متضعضعة ، وقبيل ان يلتفت الى الورا
رأيت عيني ما زالتا تتبعانني بتلك النظرة الغريبة - تلك
النظرة التي لم أفهم معانيها حتى عتقت نفسي من عالم المقاييس
والكمية وطارت إلى مسارح الملا الأعلى حيث تتفاهم القلوب
بالنظرات وتنمو الارواح بالتفاهم .

في باب الهيكل



وبعد أيام وقد مللت الوحدة وتعبت أجناني من النظر
الى أوجه الكتب العابسة علوت مركبة طالباً منزل فارس
كرامه ، حتى إذا ما بلغت بي غابة الصنوبر حيث يذهب
القوم للتنزه حول السائق وجهة فرسيه عن الطريق العمومية
فسار خيباً على ممر تظله اشجار الصفصاف وتتأيل على جانبيه
الأعشاب والدوالي المتعرشة وأزاهر نيسان المبتسمة بثغور.
حمر كالياقوت وزرقاء كالزمرد وصفراء كالذهب .

وبعد دقيقة وقفت المركبة أمام منزل منفرد تحيط به
حديقة مترامية الأطراف تتعاقب في جوانبها الاغصان وتعطر
فضاءها رائحة الورد والفل والياسمين .

ما سرت بضع خطوات في تلك الحديقة حتى ظهر فارس
كرامه في باب المنزل خارجاً للقائي كأن هدير المركبة في تلك
البقعة المنفردة قد أعلن له قدومي ، فمش متأهلاً وقادني
مرحباً الى داخل الدار ، ونظير والد مشتاق اجلسني بقربه
يحدثني مستفسراً عن ماضي مستطلعاً مقاصدي في مستقبلي ،
فكنت أجيبه بتلك اللهجة المفعمة بنعمة الأحلام والأمانى

التي يترنم بها الفتیان قبل أن تقذفهم أمواج الخيال إلى شاطئ العمل حيث الجهاد والنزاع ... للشبيبة أجنحة ذات ريش من الشعر وأعصاب من الأوهام ترتفع بالفتیان إلى ما وراء الغيوم فيرون الكيان مغموراً بأشعة متلونة بألوان قوس قزح ، ويسمعون الحياة مرتلة أغاني المجد والعظمة ، ولكن تلك الأجنحة الشعرية لا تلبث أن تمزقها عواصف الاختبار فيهبطون إلى عالم الحقيقة ، وعالم الحقيقة مرآة غريبة يرى فيها المرء نفسه مصفرة مشوهة .

في تلك الدقيقة ظهرت من بين ستائر الباب المخملية صبية ترقدي أثواباً من الحرير الأبيض الناعم ومشت نحوي ببطم ، فوقفت ووقف الشيخ قائلاً : هذه ابنتي سلمى . وبعد أن لفظ اسمي شفعه بقوله : ان ذاك الصديق القديم الذي حجبتة عنى الأيام قد عادت فأبانتة لي بشخص ابنه ، فأنا أراه الآن ولا أراه . فتقدمت الصبية إلي وحدقت إلى عيني كأنها تريد أن تستنطقها عن حقيقة امري وتعلم منها أسباب مجيئي إلى ذلك المكان ، ثم اخذت يدي بيد تضارع زنبقة الحقل بياضاً ونعومة ، فأحسست عند ملامسة الأكف بعاطفة غريبة جديدة اشبه شيء بالفكر الشعري عند ابتداء تكوينه في مخيلة الكاتب .

جلسنا جميعاً ساكتين كأن سلمى قد ادخلت معها إلى تلك الغرفة روحاً علوية توغز الصمت والتهيب ، وكأنها شعرت بذلك فالتفتت نحوي وقالت مبتسمة : كثيراً ما حدثني

والذي عن ابيك معيداً على مسمي حكايات شبابه ، فان كان والدك قد اسمعك تلك الوقائع فلا يكون هذا اللقاء هو الأول بيننا .

فسر الشيخ بكلمات ابنته وانبسطت ملامحه ثم قال : ان سلمى روحية الميول والمذاهب ، فهي ترى جميع الأشياء ساجدة في عالم النفس .

وهكذا عاد فارس كرامه الى محادثتي باهتمام كلي ورقة متناهية كأنه وجدني سرّاً سحريراً يرجعه على اجنحة الذكرى الى ربيع ايامه الغابرة .

كان ذلك الشيخ يحدق اليّ مسترجعاً اشباح شبابه وانا اتأمله حالماً بمستقبلي ، كان ينظر اليّ مثلما تحم اغصان الشجرة العالية المملوءة بماّتي الفصول فوق غرسة صغيرة مفعمة بمزم هاجع وحياة عمياء . شجرة مسنة راسخة الأعراق قد اختبرت صيف العمر وشتاءه ووقفت امام عواصف الدهر وانوائه ، وغرسة ضعيفة لينة لم ترّ غير الربيع ولم ترتعش إلا بمرور نسيم الفجر .

اما سلمى فكانت ساكنة تنتظر الي تارة وطوراً الى ابيها كأنها تقرأ في وجهينا اول فصل من رواية الحياة وآخر فصل منها .

قضى ذلك النهار متنهداً انفاسه بين تلك الحدائق والبساتين وغابت الشمس تاركة خيال قبلة صفراء على قمم لبنان المتعالية قبالة ذلك المنزل وفارس كرامه يتلو عليّ أخباره فيذهلني وانا اترنم امامه بأغاني شيبتي فاطربه ، وسلمى

جالسة بقرب تلك النافذة تنظر إلينا بعينيها الحزینتین ولا تتحرك وتسمع أحاديثنا ولا تتكلم كأنها عرفت ان للجمال لغة سماوية تترفع عن الاصوات والمقاطع التي تحدثها الشفاء والألسنة ، لغة خالدة تضم اليها جميع انغام البشر وتجعلها شعوراً صامتاً مثلما تجتذب البحيرة الهادئة أغاني السواقي الى أعماقها وتجعلها سكوتاً أبدياً . ان الجمال سر تفهيمه أرواحنا وتفرح به وتنمو بتأثيراته ، أما أفكارنا فتقف أمامه ختارة محاولة تحديده وتجسيده بالألفاظ ولكنها لا تستطيع . هو سيال خاف عن العين يتموج بين عواطف الناظر وحقيقة المنظور . الجمال الحقيقي هو أشعة تنبعث من قدس أقداس النفس وتثير بخارج الجسد مثلما تنبثق الحياة من أعماق النواة وتكسب الزهرة لونها وغطراً - هو تفاهم كلي بين الرجل والمرأة يتم بلحظة ، وبلحظة يولد ذلك الميل المترفع عن جميع الميول - ذلك الانعطاف الروحي الذي ندعوه حباً ، فهل فهمت روحي روح سلمى في عشية ذلك النهار فجعلني التفاهم أراها أجمل امرأة امام الشمس ام هي سكرة الشبية التي تجعلنا فتخيل رسوماً واشباحاً لا حقيقة لها؟ هل اعمتني الفتوة فتوهمت الأشعة في عيني سلمى والحلاوة في ثغرها والرقعة في قدها ام هي تلك الأشعة وتلك الحلاوة وتلك الرقعة التي فتحت عيني لتريني أفراح الحب وأحزانه ؟ لا أدري ولكنني أعلم انني شعرت بعاطفة لم أشعر بها قبل تلك الساعة . عاطفة جديدة تمايلت حول قلبي يهدوه يشابه رفرقة الروح على وجه القمر قبل ان تبتدىء الدهور . ومن تلك العاطفة قد تولدت سعادتني

وتعاسني مثلما ظهرت وتناسخت الكائنات بإرادة ذلك الروح .
 هكذا انقضت تلك الساعة التي جمعتني بسلمى لأول مرة ،
 وهكذا شاءت السماء واعتقتني على حين غفلة من عبودية
 الحيرة والهدائة لتسيرني حرّاً في موكب المحبة ، فالمحبة هي
 الحرية الوحيدة في هذا العالم لانها ترفع النفس إلى مقام سام
 لا تبلغه شرائع البشر وتقاليدهم ولا تسوده نوائيس الطبيعة
 وأحكامها .

ولما وقفت للانصراف اقترب مني فارس كرامه وقال
 بصوت تعانقه رنة الاخلاص : الآن وقد عرفت الطريق الى
 هذا المنزل يجب أن تأتي اليه شاعراً بالثقة التي تقودك إلى بيت
 أبيك وأن تحسبني وسلمى كوالد وأخت لك - اليس كذلك
 يا سلمى ؟

فحنت سلمى رأسها إيجاباً ثم نظرت إليّ نظرة غريب
 ضائع وجد رقيقاً يعرفه .

ان تلك الكلمات التي قالها لي فارس كرامه هي النعمة
 الأولى التي أوقفني بجانب ابنته أمام عرش المحبة هي استهلال
 الأغنية السماوية التي انتهت بالنسب والثناء . هي القوة التي
 شجعت روحينا فاقتربنا من النور والنار . هي الإناء الذي
 شربنا فيه الكوثر والعلقم .

وخرجت فشيءني الشيخ الى اطراف الحديقة ، فودعتها
 وقلبي يخفق في داخلي مثلما ترتعش شفتا العطشان بلامسة حافة
 الكأس .

الشعلة البيضاء



وانقضى نيسان وأنا أزور منزل فارس كرامه وأتقي
سلى وأجلس قبالتها في تلك الحديقة متأملاً محاسنها ، معجباً
بواهبها، مصفياً لسكينة كآبتها ، شاعراً بوجود أيدٍ خفية
تجتذبي إليها . فكل زيارة كانت تبين لي معنىً جديداً من
معاني جمالها وسراً علوياً من أسرار روحها حتى أصبحت أمام
عيني كتاباً أقرأ سطورهِ وأستظهر آياته وأترنم بنغمته ولا
استطيع الوصول الى نهايته .

ان المرأة التي تمنحها الآلهة جمال النفس مشفوعاً بجمال الجسد
هي حقيقة ظاهرة غامضة نفهمها بالحبّة ونلمسها بالظهر ، وعندما
نحاول وصفها بالكلام تختفي عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة
والالتباس .

وسلى كرامه كانت جميلة النفس والجسد ، فكيف أصفها
لمن لا يعرفها ؟ هل يستطيع الجالس في ظل أجنحة الموت أن
يستحضر تغريدة البليل ، وهمس الوردة ، وتنهدة الغدير ؟
أيقدر الأسير المثقل بالقيود ان يلاحق هبوب نسائم الفجر ؟

ولكن أليس السكوت أصعب من الكلام ؟ وهل ينبغي التهيّب عن إظهار تخيال من أخيلة سلمى بالألفاظ الواهية اذا كنت لا تستطيع أن أرسم حقيقتها بخطوط من الذهب ؟ إن الجائع السائر في الصحراء لا يأبى أكل الخبز اليابس إذا كانت السماء لا تمطره المن والسلوى .

كانت سلمى نحيلة الجسم تظهر بملابسها البيضاء الحريرية كأشعة قمر دخلت من النافذة . وكانت حركاتها بطيئة متوازنة اشبه شيء بمقاطع الألحان الاصفهانية ، وصوتها منخفضاً حلوّاً تقطعه التنهدات ، فينسكب من بين شفثيها القرمزيتين مثلاً تتساقط قطرات الندى عن تيجسان الزهور بمرور تموجات الهواء .. ووجهها - ومن يا ترى يستطيع أن يصف وجه سلمى كرامه ؟ بأية ألفاظ نقدر أن نصور وجهاً حزيناً هادئاً محجوباً وليس محجوباً بنماب من الاصفار الشفاف ؟ بأية لغة نقدر أن نتكلم عن ملامح تعلن في كل دقيقة سرّاً من أسرار النفس وتذكر الناظرين اليها بعالم روحي بعيد عن هذا العالم ا

ان الجمال في وجه سلمى لم يكن منطبقاً على المقاييس التي وضعها البشر للجمال ، بل كان غريباً كاللحم او كالرؤيا او كفكر علوي لا يقاس ولا يحد ولا ينسخ بريشة المصور ، ولا يتجسم برخام الحفار . جمال سلمى لم يكن في شعرها الذهبي بل في هالة الطهر المحيطة به . ولم يكن في عينيها الكبيرتين بل في النور المنبعث منها . ولا في شفثيها الورديتين بل في

الحلاوة السائلة عليها . ولا في عنقها العاجي بل في كيفية
 انحنائه قليلاً إلى الأمام . جمال سلمى لم يكن في كمال جسدها
 بل في نبالة روحها الشبيهة بشعلة بيضاء متقدة سابحة بين الأرض
 واللا نهاية . جمال سلمى كان نوعاً من ذلك النبوغ الشعري الذي
 نشاهد اشباحه في القصائد السامية والرسوم والانغام الخالدة .
 وأصحاب النبوغ تعساء منها تسامت أرواحهم تظل مكتنفة
 بغلاف من الدموع .

وكانت سلمى كثيرة التفكير قليلة الكلام ، لكن سكوتها
 كان موسيقياً ينتقل يجليسا إلى مسارح الأحلام البعيدة ،
 ويجعله يصغي لنبضات قلبه ، ويرى أخيلة افكاره وعواطفه
 منتصبة أمام عينيه .

أما الصفة التي كانت تعانق مزايا سلمى وتساور أخلاقها
 فهي الكتابة العميقة الجارحة ، فالكتابة كانت وشاحاً معنوياً
 ترتديه فتزيد محاسن جسدها هيبه وغرابة ، وتظهر أشعة
 نفسها من خلال خيوطه كخطوط شجرة مزهرة من وراء
 ضباب الصباح . وقد أوجدت الكتابة بين روحي وروح سلمى
 صلة المشابهة ، فكان كلانا يرى في وجه الثاني ما يشعر به قلبه
 ويسمع بصوته صدى مخبات صدره ، فكان الآلهة قد جعلت
 كل واحد منا نصفاً للآخر يلتصق به بالطهر فيصير انساناً
 كاملاً ، وينفصل عنه فيشعر بنقص موجه في روحه .

إن النفس الحزينة المتألمة تجد راحة بانضمامها إلى نفس

أخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالاحساس مثلما يستانس
الغريب بالغريب في أرض بعيدة عن وطنها - فالقلوب التي
تدنياها أوجاع الكتابة بعضها من بعض لا تفرقها بهجة الأفراح
وبهرجتها . فرابطة الحزن أقوى في النفوس من روابط الغبطة
والسرور . والحب الذي تغسله العيون بدموعها يظل طاهراً
وجميلاً وخالداً .



العاصفة



وبعد أيام دعاني فارس كرامه إلى تناول العشاء في منزله، فذهبت ونفسي جائعة إلى ذلك الخبز العلوي الذي وضعت السهء بين يدي سلمى، ذلك الخبز الروحي الذي نلتهمه بأفواه أفئدتنا فنزداد جوعاً، ذلك الخبز السعري الذي ذاق طعمه قيس العربي ودانق الطلياني وسافو اليونانية فالتهبت أحشائهم وذابت قلوبهم، ذلك الخبز الذي عبجنته الآلهة بجلاوة القبل ومرارة الدموع وأعدته ما كلا للنفوس الحساسة المستيقظة لته يحها بطعمه وتعذبها بتأثيره .

ولما بلغت المنزل وجدت سلمى جالسة على مقعد خشبي في زاوية من الحديقة وقد أسندت رأسها إلى عمد شجرة فبانث بثوبها الأبيض كواحدة من عرائس الخيال تخفر ذلك المكان، فدنوت منها صامتاً وجلست بقربها جلوس مجوسي متهيّب أمام النار المقدسة، ولما حاولت الكلام وجدت لساني منعقداً وشفقيّ جامدتين فاستأنست بالسكوت، لأن الشعور العميق غير المتناهي يفقد شيئاً من خاصته المعنوية عندما يتجسم بالألفاظ المحدودة، ولكنني شعرت بأن سلمى كانت تسمع في

السكينة مناجاة قلبي المتواصلة وتشاهد في عيني أشباح نفسي المرتعشة .

وبعد هنية خرج فارس كرامه الى الحديقة ومشى نحونا مرحباً بي كعادته باسطاً يده إليّ كأنه يريد أن يبارك بها ذلك السر الحفي الذي يربط روحي بروح ابنته ، ثم قال مبتسماً : هلم يا ولديّ الى العشاء فالطعام ينتظرنا . فقمنا وتبعناه وسلمى تنظر إلي من وراء أجفان مكحولة بالرقعة والانعطاف كأن لفظه «يا ولديّ» قد أيقظت في داخلها شعوراً جديداً عذبا يكتنف محبتها لي مثلما تحتضن الأم طفلها .

جلسنا الى المائدة نأكل ونشرب ونتحدث - جلسنا في تلك الغرفة تتلذذ بالوان الطعام الشبية وأنواع الخمر المعتقة وأرواحنا تسبح على غير معرفة منا في عالم بعيد عن هذا العالم وتعلم بما آتى المستقبل وتتأهب للوقوف أمام مخاوفه وأهواله . ثلاثة أشخاص تختلف افكارهم باختلاف مقاصدهم من الحياة وتتفق سرائرهم باتفاق قلوبهم بالمودة والمحبة ، ثلاثة من الضعفاء الأبرياء يشعرون كثيراً ويعرفون قليلاً . وهذه هي المأساة المستتبة على مسرح النفس . شيخ جليل شريف يحب ابنته ولا يحفل بغير سعادتها - وصبية في العشرين من عمرها ترى المستقبل قريباً بعيداً وتحقق اليه لترى ما يخبىء لها من الغبطة والشقاء - وقتى كثير الأعلام والهواجس لم يذق بعد خمر الحياة ولا خلها يحرك جناحيه ليطير سابحاً في فضاء المحبة والمعرفة ولكنه لا يستطيع

النهوض لضعفه . ثلاثة جالسون حول مائدة انيقة في منزل متفرد عن المدينة تخيم عليه سكينه الدجى وتحديق اليه عيون السماء ، ثلاثة يأكلون ويشربون وفي اعماق صحوونهم وكؤوسهم قد اخفى القدر المرارة والاشواك .

ولم نلته من العشاء حتى دخلت علينا احدى الخادومات وخاطبت فارس كرامه قائلة : في الباب رجل يطلب مقابلتك يا سيدي .

فسألها : من هو هذا الرجل ؟ فأجابت : اظنه خادم المطران يا سيدي . فسكت دقيقة وهدق إلى عيني ابنته نظير نبي ينظر الى وجه السماء ليرى ما تخبئه من الأسرار ، ثم التفت نحو الخادمة وقال : دعيه يدخل .

فعدت الخادمة ، وبعد هنيهة ظهر رجل بأثواب مزركشة وشارب معقوف الطرفين ، فسلم منحنيا وخاطب فارس كرامه قائلا : قد بعثني سيادة المطران بمركبته الخصوصية لاطلب اليك ان تتكرم بالذهاب اليه ، فهو يريد أن يباحثك بأمر ذات أهمية .

فانتصب الشيخ وقد تغيرت ملامحه وانحجبت بشاشة وجهه وراء نقاب من التأمل والتفكير ، ثم اقترب مني وقال بصوت تساوره الرقة والحلاوة : أرجو أن اعود والفاك ههنا ، فسلمى ستجد بك مؤنسا يبعد بأحاديثه وحشة الليل ، ويزيل بأنغام نفسه تأثير الوحدة والانفراد . ثم التفت نحو ابنته وزاد مبتسما : اليس كذلك يا سلمى ؟

فحنت الصبية رأسها وقد توردت وجنتاها قليلاً ،
وبصوت يضارع نغمة الناي رقة قالت : سوف اجهد النفس
لكي أجعل ضيفنا مسروراً يا والدي .

وخرج الشيخ مصحوباً بخادم المطران وظلت سلمى واقفة
تنظر من النافذة نحو الطريق حتى اختفت المركبة عن بصرها
وراء ستائر الظلام واضمحلت ارتجاج الدواليب بتباعد المسافة
وتشرب السكون حرققة سنابك الخيل ، ثم جلست قباليقي
على مقعد موشى بنسيج من الحرير الأخضر فبانث بأثوابها
الناصعة كزنبقة لوت قامتها نسبات الصباح على بساط من
الأعشاب .

كذا شاءت السهاء فخلوت بسلمى ليلاً في منزل منفرد
تحفره الأشجار ، وقغمرة السكينة ، وتسير في جوانبه أخيلة
الحب والطهر والجمال .

ومرت دقائق وكلانا صامت حائر مفكر يترقب الآخر
ليبدأ بالكلام . ولكن هل هو الكلام الذي يحدث التفاهم
بين الأرواح المتحابة ؟ هل هي الأصوات والمقاطع الخارجة
من الشفاه والألسنة التي تقرب بين القلوب والعقول ؟ أفلا
يوجد شيء أسمى مما تلهه الأفواه وأطهر مما تهتز به أوتار
الحناجر ؟ أليست هي السكينة التي تحمل شعاع النفس إلى
النفس ، وتنقل همس القلب إلى القلب ؟ أليست هي السكينة
التي تفصلنا عن ذواتنا فنسبح في فضاء الروح غير المهتدد
مقتربين من الملا الأعلى ، شاعرين بأن أجسادنا لا تفوق

السجون الضيقة ، وهذا العالم لا يمتاز عن المنفى البعيد ؟
ونظرت سلمى إلي وقد باحت أجفانها بسرائر نفسها ثم
قالت بهدوء سحري : تعال نخرج إلى الحديقة ونجلس بين
الأشجار لنرى القمر طالماً من وراء الجبل .

فوقفت مطيعاً وقلت بمანعاً : أليس الأفضل أن نبقى هنا
يا سلمى حتى يطلع القمر وينير الحديقة ؟ أما الآن فالظلام
يحبب الأشجار والأزهار فلا نستطيع أن نرى شيئاً .
فأجابت : إذا حجب الظلام الأشجار والرياحين عن العين
فالظلام لا يحبب الحب عن النفس .

قالت هذه الكلمات بلهجة غريبة ، ثم حولت عينيها
ونظرت نحو النافذة ، فبقيت أنا صامتاً مفكراً بكلماتها
مصوراً لكل مقطع معنى ، راسماً لكل معنى حقيقة ، ثم
عادت فحدقت إلي كأنها ندمت على ما قالت فحاولت
استرجاع كلماتها من أذني بسحر أجفانها . ولكن سحر تلك
الأجفان لم يسترجع تلك الألفاظ إلا ليعيدها إلى أعماق صدري
أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً وليبقها هناك ملتصقة بقلبي
متموجة مع عواطفي إلى آخر الحياة

كل شيء عظيم وجميل في هذا العالم يتولد من فكر واحد
أو من حاسة واحدة في داخل الإنسان . كل ما نراه اليوم من
أعمال الأجيال الغابرة كان قبل ظهوره فكراً خفياً في عاقلة
رجل أو عاطفة لطيفة في صدر امرأة ... الثورات الهائلة

التي أجرت الدماء كالسواقي وجعلت الحرية تعبد كالألهة كانت
فكراً خيالياً مرتعشاً بين تلافيف دماغ رجل فرد عائش بين
ألوف من الرجال . والحروب الموجهة التي ثلت العروش
ونخربت الممالك كانت خاطراً يتمايل في رأس رجل واحد .
والتعاليم السامية التي غيرت مسار الحياة البشرية كانت ميلاً
شعرياً في نفس رجل واحد منفصل بنبوغته عن محيطه .
فكر واحد أقام الأهرام وعاطفة واحدة خربت تروادة
وخاطر واحد أوجد مجدد الإسلام وكلمة واحدة أحرقت
مكتبة الاسكندرية .

فكر واحد يجيئك في سكينة الليل يسير بك إلى المجد
أو إلى الجنون . نظرة واحدة من أطراف أجفان امرأة
تجملك أسعد الناس أو أتعسهم . كلمة واحدة تخرج من بين
شفتي رجل تصيرك غنياً بعد الفقر أو فقيراً بعد الغنى . . .
كلمة واحدة لفظتها سلمى كرامه في تلك الليلة الهادئة أوقفتني
بين ماضي ومستقبلي وقوف سفينة بين لجة البحار وطبقات
الفضاء . كلمة واحدة معنوية قد أيقظتني من سبات الحداثة
والخيل وسارت بأيامي على طريق جديدة إلى مسارح الحب
حيث الحياة والموت .

خرجنا إلى الحديقة وسرنا بين الأشجار شاعرين بأصابع
النسيم الخفية تلامس وجهينا وقامات الأزهار والأعشاب اللدنة
تتمايل بين أقدامنا ، حتى إذا ما بلغنا شجرة الياسمين جلسنا
صامتين على ذلك المقعد الخشي نسمع تنفس الطبيعة

النائمة ونكشف بجلاوة التنهد خفايا صدرينا أمام عيون السماء
الناظرة إلينا من وراء ازرقاق السماء .

وطلع القمر إذ ذاك من وراء صنين وغمر بنوره تلك
الروابي والشواطىء ، فظهرت القرى على اكتاف الأودية كأنها
قد انبثقت من اللاشيء ، وبان لبنان جميعه من تحت تلك الأشعة
الفضية كأنه فتى متكىء على ساعده تحت نقاب لطيف يخفي
أعضائه ولا يخفيها .

لبنان عند شعراء الغرب مكان خيالي قد اضمحلت حقيقته
بذهاب داود وسليمان والأنبياء مثلما انجسبت جنة عدن بسقوط
آدم وحواء ، هو لفظة شعرية لا اسم جبل - لفظة ترمز عن
عاطفة في النفس وتستحضر إلى الفكر رسوم غابات من الأرز
يفوح منها العطر والبخور ، وأبراج من النحاس والرغام تتعالى
بالمجد والعظمة ، واسراب من الغزلان تتهادى بين الطلول
والأودية . وأنا قد رأيت لبنان في تلك الليلة مثل فكر
شعري خيالي منتصب كالحلم بين اليقظة واليقظة . كذا تتغير
الأشياء أمام أعيننا بتغير عواطفنا ، وهكذا نتوهم الأشياء
متشحة بالسحر والجمال عندما لا يكون السحر والجمال إلا في
نفوسنا .

والتفتت إلى سلمى وقد غمر نور القمر وجهها وعنقها
ومعصمها فبان كتمثال من العاج نحتته أصابع متعبد لعشائرت
ربة الحسن والمحبة : لماذا لا تتكلم ؟ لماذا لا تحدثني عن ماضي
حياتك ؟

فنظرت إلى عينيها المنيرتين ، ومثل أخرس فاجأ النطق
شفتيه أجبتها قائلاً : ألم تسمعي متكلماً مذ جئت إلى هذا
المكان ؟ أو لم تسمعي كل ما قلته مذ خرجنا إلى هذه الحديقة ؟
إن نفسك التي تسمع همس الأزهار وأغاني السكينة تستطيع أن
تسمع صراخ روحي وضجيج قلبي .

فحجبت وجهها بيديها ثم قالت بصوت متقطع : قد
سمعتك ... نعم سمعتك . سمعت صوتاً صارخاً خارجاً من
احشاء الليل وضجة هائلة منبثقة من قلب النهار .

فقلت بسرعة وقد نسيت ماضي حياتي ونسيت كياني
ونسيت كل شيء ولم أعد أعرف سوى سلمى ولا أشعر بغير
وجودها : وأنا قد سمعتك يا سلمى - سمعت نعمة عظيمة
محياة جارحة تتموج لها دقائق الفضاء وتهتز بارتعاشها أسس
الأرض .

فأغمضت سلمى أجفانها وظهر على شفثيها القرمزيتين خيال
ابتسامة محزنة ثم همست قائلة : قد عرفت الآن انه يوجد
شيء أعلى من السماء وأعمق من البحر وأقوى من الحياة والموت
والزمن . وقد عرفت الآن بما لم أكن اعرفه بالأمس ولا
أحلم به .

منذ تلك الدقيقة صارت سلمى كرامه أعز من الصديق
وأقرب من الأخت وأحب من الحبيبة . صارت فكراً
سامياً يتبع عاقلتي وعاطفة رقيقة تكتنف قلبي وحلماً جميلاً
يجور نفسي .

ما أجهل الناس الذين يتوهمون ان المحبة تتولد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرة . ان المحبة الحقيقية هي ابنة التفاهم الروحي وإن لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة لا يتم بعصام ولا يجيل كامل .

ورفعت سلمى رأسها ونظرت نحو الأفق البعيد حيث تلتقي خطوط صنين بأذيال الفضاء ، ثم قالت : لقد كنت لي بالأمس مثل أخ أقرب منه مطمئنة وأجلس بجانبه في ظلال والدي ، أما الآن فقد شعرت بوجود شيء أقوى وأعذب من العلاقة الأخوية ، قد شعرت بعاطفة غريبة مجردة عن كل علاقة . عاطفة قوية مخيفة لذيدة تملأ قلبي حزناً وفرحاً .

فأجبتها : أليست هذه العاطفة التي نخافها ونرتجف لمرورها في صدورنا جزءاً من الناموس الكلي الذي يسير القمر حول الأرض ، والأرض حول الشمس ، والشمس وما يحيط بها حول الله ؟

فوضعت يدها على رأسي وغرست أصابعها بشعري وقد تهلل وجهها وترقرقت الدموع في عينيها مثلما تلمع قطرات الندى على أطراف أوراق النرجس ، ثم قالت : من من البشر يصدق حكايتنا ؟ من منهم يصدق اننا في الساعة التي تجيء بين غروب الشمس وطلوع القمر قد قطعنا العقبات واجتازنا المعابر الكائنة بين الشك واليقين من منهم يعتقد أن نيسان الذي جمعنا لأول مرة هو الشهر الذي أوقفنا في قدس أقداس الحياة ؟

قالت هذه الكلمات ويدها ما برحت على رأسي المنحني ،
ولو تخيرت في تلك الدقيقة لما فضلت تيجان الملوك وأكاليل
الغار على تلك اليد الحريرية المتلاعبة بشعري . ثم أجبتها قائلاً :
ان البشر لا يصدقون حكايتنا لأنهم لا يعلمون بأن المحبة هي
الزهرة الوحيدة التي تنبت وتنمو بغير معاونة الفصول ،
ولكن هل هو نيسان الذي جمعنا لأول مرة ؟ وهل هي هذه
الساعة التي أوقفنا في قدس أقداس الحياة ؟ أما جمعت روحينا
قبضة الله قبل ان تصيرنا الولادة أسيري الايام والليالي ؟ ان
حياة الانسان يا سلمى لا تبتدىء في الرحم كما انها لا تنتهي
أمام القبر ، وهذا الفضاء الواسع المملوء بأشعة القمر
والكواكب لا يخلو من الأرواح المتعاقبة بالحنة والنفوس
المتضامنة بالتفاهم .

ورفعت سلمى يدها بلطف عن رأسي تاركة بين مخارص
الشعر توجات كهربائية يتلاعب بها نسيم الليل فيزيدهم نوماً
وحراكاً ، فأخذت تلك اليد براحتي نظير متعبد يتبرك بلثم
المذبح ووضعتها على شفتي المتهبتين وقبلتها قبلة طويلة عميقة
خرساء تذيب بحرارتها كل ما في القلب البشري من الاحساس
وقنبه بعدوثتها كل ما في النفس الالهية من الطهر .

ومرت علينا ساعة بكل دقيقة منها عام شغف ومحبة ،
تساورنا سكينه الليل وتغمرنا أشعة القمر وتحيط بنا الأشجار
والرياحين ، حتى إذا ما بلغنا تلك الحالة التي ينسى فيها

الانسان كل شيء سوى حقيقة الحب سمعنا وقع حوافر وهدير
 مركبة تقارب منا مسرعة ، فانتبهنا من تلك الغيبوبة اللذيذة
 وهبطت بنا اليقظة من عالم الاحلام إلى هذا العالم الواقف بمسيرة
 بين الحيرة والشقاء ، فعرفنا ان الوالد الشيخ قد عاد من دار
 المطران فسرنا بين الاشجار ننتظر وصوله . وبلغت المركبة
 مدخل الحديقة فترجل فارس كرامه وسار نحونا منحني الرأس
 بطيء الحركة ، ونظير متعب رازح تحت حمل ثقيل تقدم نحو
 سلمى ووضع كلتا يديه على كتفها وحدق الى وجهها طويلاً
 كأنه يخاف ان تغيب صورتها عن عينيه الضيلتين ، ثم
 انسكبت دموعه على وجنتيه المتجمعتين وارتجفت شفتاه
 بابتسامة محزنة وقال بصوت مخنوق : عما قريب يا سلمى ، عما
 قريب تخرجين من بين ذراعي والدك إلى ذراعي رجل آخر .
 عما قريب تسير بك سنة الله من هذا المنزل المنفرد إلى ساحة
 العالم الواسعة فتصبح هذه الحديقة مشتباقة إلى وطء قدميك
 ويصير والدك غريباً عنك . لقد لفظ القدر كلمته يا سلمى ،
 فلتباركك السماء وتحرمك !

سمعت سلمى هذه الكلمات فتغيرت ملامحها وجمدت عيناها
 كأنها رأت شبح الموت منتصباً أمامها ، ثم شهقت وتلملت
 متوجعة كمصفور رماه الصياد فهبط على الحضيض مرتجفياً
 بالأمه ، وبصوت تقطعه الغصات العميقة صرخت قائلة : ماذا
 تقول ؟ ماذا تعني ؟ إلى أين تريد أن تبعث بي ؟ .

ثم شخصت به كأنها تريد أن تزيل بنظراتها الغلاف عن
نخبآت صدره . وبعد دقيقة مثقلة بعوامل ذلك السكون
الشبيه بصراخ القبور قالت متأوهة : قد فهمت الآن ... قد
عرفت كل شيء . . . ان المطران قد فرغ من حبك قضبان
القفص الذي أعده لهذا الطائر المكسور الجناحين ، فهل هذه
هي إرادتك يا والدي ؟ .

فلم يجيبها بغير التهنيدات العميقة ، ثم أدخلها الدار وأشعة
الحنو تنسكب من ملامحه المضطربة ، فبقيت أنا واقفاً بين
الأشجار والحيرة تتلاعب بعواطفي مثلها تتلاعب العواصف
بأوراق الخريف ، ثم تبعتها الى القاعة . وكيلا أظهر بمظهر
طفيلي يميل الى استطلاع الخصوصيات أخذت يد الشيخ مودعاً
ونظرت الى سلمى نظرة غريق تلف نحو نجم لامع في قبة
الفلك ، ثم خرجت دون ان يشعرا بخروجي ، ولكنني ما
بلغت أطراف الحديقة حتى سمعت صوت الشيخ منادياً ، فالتفت
واذا به يتبعني ، فعدت الى لقائه ، ولما دنوت منه أمسك بيدي
وقال بصوت مرتعش : ساعني يا ابني فقد جعلت ختام ليلتك
مكتنفاً بالدموع ، ولكنك سوف تجيء الى دائماً ، أليس كذلك ؟
ألا تزورني عندما يصير هذا المكان خالياً إلا من الشيخوخة
المحزينة ؟ ان الشباب الغض لا يستأنس بالشيخوخة الذابلة كما ان
الصباح لا يلتقي بال مساء ، أما أنت فسوف تجيء إلي لتذكرني
بأيام الصبا التي صرفتها بقرب أبيك وتعيد علي مسمعي أخبار

الحياة التي لم تعد تحسبني من أبنائها ، اليس كذلك ؟ ألا تزورني عندما تذهب سلمى وأصبح وحيداً منفرداً في هذا المنزل البعيد عن المنازل ؟

لفظ الكلمات الأخيرة بصوت منخفض متقطع ، ولما أخذت يده وهزرتها صامتاً أحسست بقطرات من الدموع السخينة قد تساقطت على يدي من جفانه ، فارتعشت نفسي في داخلي وشعرت نحوه بعاطفة بنوثة عذبة محزنة تتمايل بين ضلوعي وتتصاعد كاللهاث الى شفتي ثم تعود كالنصبات الى أعماق قلبي . ولما رفعت رأسي ورأيت ان دموعه قد استدرت الدموع من أجباني انحنى قليلاً ولمس بشفتيه المرتجفتين أعلى جبھتي ثم قال بحولاً وجهه نحو باب المنزل : مساء الخير ... مساء الخير يا ابني .

ان دموعه واحدة تتلمع على وجنة شيخ متجمدة لهي أشد تأثيراً في النفس من كل ما تهرقه أجبان الفتيان .

ان دموع الشباب الغزيرة هي مما يفيض من جوانب القلوب المترعة ، اما دموع الشيوخ فهي فضلات العمر تنسكب من الأحداق ، هي بقية الحياة في الأجساد الواهنة . الدموع في أجبان الشبيبة كقطرات الندى على اوراق الورد ، أما الدموع على وجنة الشيخوخة فأشبه بأوراق الخريف المصفرة التي تنثرها الرياح وتذريها عندما يقترب شتاء الحياة .

واختفى فارس كرامه وراء مصراعي الباب وخرجت أنا

من تلك الحديقة وصوت سلمى يتموج في أذنيّ ، وجمالها يسير
كالخيال أمام عينيّ ، ودموع والدها تجف ببطء على يديّ .
خرجت من ذلك المكان خروج آدم من الفردوس ، ولكن
حواء هذا القلب لم تكن يجاني لتجعل العالم كله فردوساً .
خرجت شاعراً بأن تلك الليلة التي ولدت فيها ثانية هي الليلة
التي لمحت فيها وجه الموت لأول مرة .

كذا تحيي الشمس الحقول بجزارتها ، وبجزارتها تميتها .

بحيرة النار



كل ما يفعله الانسان سرّاً في ظلمة الليل يظهره الانسان علناً في نور النهار . الكلمات التي تهمسها شفاهنا في السكينة تصير على غير معرفة بينا حديثاً عمومياً ، والأعمال التي نحاول اليوم إخفاءها في زوايا المنازل تتجسم غداً وتنتصب في منعطفات الشوارع .

كذا أعلنت أشباح الدجى مقاصد المطران بولس غالب من اجتماعه بفارس كرامه ، وهكذا حملت دقائق الأثير أقواله وأحاديثه إلى احياء المدينة حتى بلغت مسمي .

مما طلب المطران بولس غالب مقابلة فارس كرامه في تلك الليلة القمرية ليفاوضه بشؤون الفقراء والموزين أو يخبره بأمور الأرامل والأيتام ، بل أحضره بمركبته الخصوصية الفخمة ليطلب منه ابنته سلمى عروساً لابن أخيه منصور بك غالب .

كان فارس كرامه رجلاً غنياً ولم يكن له وازن سوى ابنته سلمى ، وقد اختارها المطران زوجة لابن أخيه ، لا

لجمال وجهها ونبالة روحها بل لأنها غنية موسرة تكفل بأموالها الطائلة مستقبل منصور بك وتساعد به بأملاتها الواسعة على إيجاد مقام رفيع بين الخاصة والاشراف .

ان رؤساء الدين في الشرق لا يكتفون بما يحصلون عليه أنفسهم من المجد والسؤدد بل يفعلون كل ما في وسعهم ليجعلوا أنسابهم في مقدمة الشعب ومن المستبدين به والمستدرين قواه وأمواله . ان مجد الأمير ينتقل بالارث إلى ابنه البكر بعد موته ، أما مجد الرئيس الديني فينتقل بالعدوى إلى الأخوة وأبناء الاخوة في حياته . وهكذا يصبح الأسقف المسيحي والامام المسلم والكاهن البرهمي كأفاعي البحر التي تقبض على الفريسة بمقابض كثيرة وتمتص دماءها بأفواه عديدة .

عندما طلب المطران بولس يد سلمى من والدها لم يجبه ذلك الشيخ بغير السكوت العميق والدموع السخينة . وأي والد لا يشق عليه فراق ابنته حتى ولو كانت ذاهبة إلى بيت جاره أو إلى قصر ملك ؟ أي رجل لا ترتعش أعماق نفسه بالغصات عندما يفصله ناموس الطبيعة عن الابنة التي لاعبها طفلة وهذبتها صبية ورافقها امرأة ؟ ان كآبة الوالدين لزواج الابنة يضارع فرحهما بزواج الابن ، لأن هذا يكسب العائلة عضواً جديداً أما ذاك فيسلبها عضواً قديماً . عزيزاً - أجاب الشيخ طلب المطران مضطراً وانحنى أمام مشيئته قهراً عما في داخل نفسه من الممانعة ، وكان قد اجتمع بابن أخيه منصور بك وسمع الناس يتحدثون عنه

فعرف خشوته وطعمه والمخطاط أخلاقه ، ولكن أي مسيحي يقدر أن يقاوم أسقفاً في سوريا ويبقى محسوباً بين المؤمنين ، أي رجل يخرج عن طاعة رئيس دينه في الشرق ويظل كريماً بين الناس ؟ أتعاند العين سهماً ولا تفقأ أو تناضل اليد سيفاً ولا تقطع ؟ وهب أنت ذلك الشيخ كان قادراً على مخالفة المطران بولس والوقوف أمام مطامعه فهل تكون سمعة ابنته في مأمن من الظنون والتأويل ، وهل يظل اسمها نقياً من أوساخ الشفاه والألسنة ؟ أو نيست جميع العناقيد العالية حامضة في شرع بنات آوى ؟

هكذا قبض القدر على سلمى كرامه وقادها عبدة ذليلة في موكب النساء الشرقيات التاعسات ، وهكذا سقطت تلك الروح النبيلة بالحبائل بينما كانت تسبح لأول مرة على أجنحة الحب البيضاء في فضاء تملأه أشعة القمر وتعطره رائحة الازاهر .

إن أموال الآباء تكون في أكثر المواطن مجلبة لشقاء البنين تلك الخزائن الواسعة التي يملأها نشاط الوالد وحرص الأم تنقلب حبوساً ضيقة مظلمة لنفوس الورثة . ذلك الإله العظيم الذي يعبده الناس بشكل الدينار ينقلب شيطاناً مخيفاً يعذب النفوس ويميت القلوب . وسلمى كرامه هي كالكثيرات من بنات جنسها اللواتي يذهبن ضحية ثروة الوالد وأمانى العريس . فلو لم يكن فارس كرامه رجلاً غنياً لكانت سلمى اليوم حية تفرح مثلنا بنور الشمس .

مرّ اسبوع وحب سلمى يجالسني في المساء منشداً على
 مسمعي اغاني السعادة وينبهي عند الفجر ليريني معاني الحياة
 وأسرار الكيان. حبّ علوي لا يعرف الحسد لأنه غني ، ولا
 يوجع الجسد لأنه في داخل الروح . ميل قوي يغمر النفس
 بالقناعة . مجاعة عميقة تملأ القلب بالاكتماء . عاطفة تولد
 الشوق ولكنها لا تثيره . فتون جعلني أرى الأرض نعيماً
 والعمر حلماً جميلاً . فكنت أسير صباحاً في الحقول وأرى في
 يقظة الطبيعة رمز الخلود ، وأجلس على شاطئ البحر وأسمع
 من أمواجه أغاني الأبدية ، وأمشي في شوارع المدينة وأجد
 في طلعات العابرين وحركات المشتغلين بحاسن الحياة وبهجة
 العمران .

تلك أيام مضت كالأشباح واضمحلت كالضباب ولم يبق
 لي منها سوى الذكرى الأليمة ، فالعين التي كنت أرى بها
 جمال الربيع ويقظة الحقول لم تعد تحددني الى غير غضب
 العواصف ويأس الشتاء . والأذن التي كنت أسمع بها أغنية
 الأمواج لم تعد تصني لغير أنة الأعماق وعويل الهاوية . والنفس
 التي كانت تقف متهيبة أمام نشاط البشر ومجد العمران لم تعد
 تشعر بغير شقاء الفقر وتعاسة الساقطين . فما أحلى أيام
 الحب وما أعذب أحلامها وما أمرّ ليالي الحزن وما أكثر
 مخاوفها !

وفي نهاية الأسبوع وقد سكرت نفسي بخمرة عواطفني سرت
 مساء إلى منزل سلمى كرامه ، ذلك الهيكل الذي أقامه الجمال

وقدسه الحب لتسجد فيه النفس مصلية ويركع القلب خاشعاً ،
ولما بلغته ودخلت الى تلك الحديقة الهادئة أحسست بوجود
قوة تستهويني وتستميلني وتبعديني عن هذا العالم وتدنينني ببطء
إلى عالم سحري خال من العراك والجهاد ، ومثل متصوف
يجذبه السماء إلى مسارح الرؤيا وجدتني سائراً بين تلك الأشجار
المهتبكة والزهور المتعانقة ، حتى إذا ما اقتربت من باب
الدار التفت وإذا بسلمى جالسة على ذلك المقعد بظلال شجرة
الياسمين حيث جلسنا منذ أسبوع في تلك الليلة التي اختارتها
الآلهة من بين الليالي وجعلتها بدء سعادتي وشقائي ، فدنوت
منها صامتاً فلم تتحرك ولم تتكلم كأنها علمت بقدومي قبل
قدومي ولما جلست بجانبها حدقت إلى عيني دقيقة وتهدت
تنهدة طويلة عميقة ثم عادت فنظرت إلى الشفق البعيد حيث
تعبث أوائل الليل بأواخر النهار . وبعد هنيهة مملوءة بتلك
السكينة السحرية التي تظم نفوسنا إلى مواكب الأرواح غير
المنظورة ، حولت سلمى وجهها نحوي وأخذت يدي بيد
مرتعشة باردة وبصوت يشابه تأوه جائع لا يقوى على الكلام
قالت :

انظر الى وجهي يا صديقي ، انظر الى وجهي جيداً وتأمله
طويلاً واقراً فيه كل ما تريد ان تفهمه مني بالكلام ...
انظر الى وجهي يا حبيبي ... انظر جيداً يا أخي .
فنظرت إلى وجهها ، نظرت طويلاً ، فرأيت تلك الاجفان التي
كانت منذ أيام قليلة تبسم كالشفاه وتتحرك كأجنحة

الشعرور قد غارت وجمدت واكتحلت بخيالات التوجع والألم، رأيت تلك البشرة التي كانت بالأمس مثل ثنايا الزنبقة البيضاء الفرحة بقبلات الشمس، قد اصفرت وذبلت وتبرقعت بنقاب القنوط. رأيت الشفتين اللتين كانتا كزهرة اقحاح تسيل عليها الحلاوة قد يبستا وصارتا كوردنين مرتجفتين أبقاهما الخريف على طرف الغصن. رأيت العنق الذي كان مرفوعاً كعمود العاج قد انحنى الى الأمام كأنه لم يعد قادراً على حمل ما يجول في تلافيف الرأس.

رأيت هذه الانقلابات الموجعة في ملامح سلمى، رأيتها جميعها ولكنها لم تكن في نظري الا كسحابة رقيقة توشح القمر فتزيد منظره حسناً وهيبة. ان الملامح التي تبيح أسرار الذات المعنوية تكسب الوجه جمالا وملاحة مها كانت تلك الأسرار موجعة وأليمة. اما الوجوه التي لا تتكلم بصمتها عن غوامض النفس وخفاياها فلا تكون جميلة مها كانت متناسقة الخطوط متناسبة الاعضاء. إن الكؤوس لا تستميل شفاهنا حتى يشف بلورها عن لون الخمر. فسلمى كرامه كانت في عشية ذلك النهار مثل كأس طافحة من خمرة علوية تمتزج بدقائقها مرارة العيش بحلاوة النفس. كانت تمثل على غير معرفة منها حياة المرأة الشرقية التي لا تغادر منزل والدها المحبوب إلا لتضع عنقها تحت نير زوجها الخشن... ولا تترك ذراعي أمها الرؤوف إلا لتعيش في عبودية والدة زوجها القاسية.

وبقيت معدقاً الى وجه سلمي مصنياً لأنفاسها المتقطعة صامتاً، مفكراً شاعراً متأتماً معها ولها ، حتى أحسست ان الزمن قد وقف عن مسيره والوجود قد انحجب واضمحل ولم أعد أرى سوى عينين كبيرتين معدقتين الى اعماقي ، ولا أشعر بغير يد باردة مرتعشة تضم يدي . ولم أفق من هذه الغيبوبة حتى سمعت سلمي تقول يهدوء: تعال نتحدث الآن يا صديقي . تعال نحاول تصوير المستقبل قبل ان يحمل علينا بمخاوفه واهواله . لقد ذهب والدي الى منزل الرجل الذي سيكون رفيقاً لي حتى القبر . قد ذهب الرجل الذي اختارته السماء سبباً لوجودي ليلتقي الرجل الذي انتقته الأرض سيداً على أيامي الآتية . ففي قلب هذه المدينة يجتمع الآن الشيخ الذي رافق شبيبتي بالشاب الذي سيرافق ما بقي لي من السنين ، وفي هذه الليلة يتفق الوالد والخطيب على يوم القران الذي سيكون قريباً منها جعلاه بعيداً ، فما أغرب هذه الساعة وما أشد تأثيرها ! في مثل هذه الليلة من الأسبوع الغابر . وفي ظلال هذه الياسمينه قد عانق الحب روحي لأول مرة ، بينما كان القدر يخطط أول كلمة من حكاية مستقبلي في دار المطران بولس غالب . وفي هذه الساعة وقد جلس والدي وخطيبي ليضفرا إكليل زواجي ، أراك جالساً يجاني وأشعر بنفسك متموجة حولي كطائر ظامئ يحوم مرفرفاً فوق ينبوع ماء يخفزه ثعبان جائع نحيف ، فما اعظم هذه الليلة وما اعتمق اسرارها!

فأجبتها وقد تخيلت القنوط شبحاً مظلماً قابضاً على عنق
حبنى ليميته في طفوليته : سيظل هذا الطائر حائماً مرفرفاً
فوق الينبوع حتى يضمنه العطش فيرديه او يقبض عليه الثعبان
الخفيف فيمزقه ويلتهمه .

فقال متأثرة وصوتها يرتجف كالأوتار الفضية : لا ، لا يا
صديقي ، فليبق هذا الطائر حياً ، ليبق هذا البلبل مغرداً
حتى المساء ، حتى ينتهي الربيع حتى ينتهي العالم ، حتى
تنتهي الدهور . لا تخرسه لأن صوته يحيني ، ولا توقف
جناحيه لأن حفيفها يزيل الضباب عن قلبي .

فهمست متهدأ : الظماً يقتله يا سلى والخوف يميته .

فأجابت والكلام يتدفق بسرعة من بين شفثيها
المرتمشتين : ان ظماً الروح اعظم من ارتواء المادة ، وخوف
النفس أحب من طمأنينة الجسد . . ولكن اسمع يا حبيبي ،
اسمعي جيداً ، انا واقفة الآن في باب حياة جديدة لا أعرف
عنها شيئاً . أنا مثل عمياء تتلمس بيدها الجدران مخافة
السقوط . أنا جارية أنزلني مال والدي الى ساحة النحاسين
فابتاعني رجل من بين الرجال . انا لا احب هذا الرجل لأنني
اجهله ، وانت تعلم ان المحبة والجهالة لا تلتقيان ، ولكنني سوف
أعلم محبته . سوف أطيعه وأخدمه وأجعله سعيداً . سوف
أهبه كل ما تقدر المرأة الضعيفة أن تهب الرجل القوي .
أما أنت فلم تزل في ربيع العمر ، أمامك الحياة طريقاً واسعة

مفروشة الأزهار والرياحين . سوف تخرج إلى ساحة العالم حاملاً قلبك مشعلاً متقدماً . سوف تفكر ببحرية وبحرية تتكلم وتفعل . سوف تكتب اسمك على وجه الحياة لأنك رجل . سوف تعيش سيداً ، لأن فاقة والدك لا تجعلك عبداً ، وأمواله لا تنزل بك إلى سوق النخاسين حيث تباع البنات وتشترى . سوف تقترن بالصبيبة التي تختارها نفسك من بين الصبايا فتسكنها صدرك قبل أن تسكنها منزلك ، وتشاركها بأفكارك قبل أن تسامها الأيام والليالي .

وسكنت دقيقة كما تسترجع أنفاسها ، ثم زادت بصوت تتابعه الغصات : ولكن أهنا تفرقنا سبل الحياة لتذهب بك إلى أمجاد الرجل وتسير بي إلى واجبات المرأة ؟ أهكذا ينقضي الحلم الجميل وتندثر الحقيقة العذبة ؟ أهكذا تبتلع اللجة نغمة الشحرور وتثر الرياح أوراق الوردة وتسحق الأقدام كأس الخمر ؟ أباطلاً أوقفنا تلك الليلة أمام وجه القمر وباطلاً ضمنا الروح في ظلال هذه الياسمين ؟ هل تسرعنا بالصعود نحو الكواكب فكنت أجنحتنا وهبطت بنا إلى الهاوية ؟ هل فاجأنا الحب نائماً فاستيقظ غاضباً ليعاقبنا ، أم هيجت أنفاسنا نسمات الليل فانقلبت ريحاً شديدة لتمزقنا وتجرفنا كالغبار إلى أعماق الوادي ؟ لم نخالف وصية ولم ندق ثمراً فكيف نخرج من هذه الجنة ؟ لم نتأمر ولم نتمرد فلماذا نهبط إلى الجحيم ! لا لا وألف لا ولا . إن اللذائق التي جمعنا هي أعظم من الأجيال ، والشعاع الذي أثار نفسنا هو أقوى

من الظلام ، فان فرقتنا العاصفة على وجه هذا البحر الغضوب
فالأمواج تجتمعنا على ذلك الشاطئ الهاديء ، وان قتلنا هذه
الحياة فذاك الموت يحيننا .

ان قلب المرأة لا يتغير مع الزمن ولا يتحول مع الفصول
قلب المرأة ينازع طويلا ولكنه لا يموت . قلب المرأة يشابه
البرية التي يتخذها الإنسان ساحة لحروبه ومذابحه ، فهو يقتلع
أشجارها ويحرق أعشابها ويلطخ صخورها بالدماء ويفرس
تربتها بالعظام والجماجم ، ولكنها تبقى هادئة ساكنة مطمئنة
ويظل فيها الربيع ربيعاً والخريف خريفاً الى نهاية الدهور . . .
والآن قضي الأمر فماذا تفعل ؟ قل لي ماذا تفعل وكيف
نفترق ومتى نلتقي ؟ هل نحسب الحب ضيفاً غريباً أتى به
المساء وأبعده الصباح ؟ أنحسب هذه العاطفة النفسية حلماً
أبانه الكرى ثم أخفته اليقظة ؟ أنحسب هذا الأسبوع ساعة
سكر ما لبثت ان قضت بالصحو والانتباه ؟ .. ارفع رأسك
لأرى عينيك يا حبيبي افتح شفئك لأسمع صوتك . تكلم ،
اخبرني ، حدثني ، هل تذكرني بعد أن تفرق العاصفة سفيني
أيامنا ؟ هل تسمع حفيف أجنحتي في سكينة الليل ؟ هل
تشعر بأنفاسي متموجة على وجهك وعنقك ؟ هل تصغي
لتنهدياتي متصاعدة بالتوجع منخفضة بالغصات ؟ وهل ترى
خيالي قادماً مع خيالات الظلام مضمجلاً مع ضباب الصباح ؟
قل لي يا حبيبي ، قل لي ماذا تكون لي بعد ان كنت نوراً
لعيني ونعمة لأذني وجناحاً لروحي ، ماذا تكون ؟

فأجبتها وحبسات قلبي تذوب في عيني : سأكون لك
يا سلمى مثلما تريدني ان أكون .

فقلت : أريدك أن تحبني . أريدك أن تحبني إلى نهاية
أيامي . أريدك أن تحبني مثلما يحب الشاعر أفكاره المحزنة .
أريدك أن تذكرني مثلما يذكر المسافر حوض ماء هاديء
رأى فيه خيال وجهه قبل ان يشرب من مائه . وأريدك أن
تذكرني مثلما تذكر الأم جنيناً مات في أحشائها قبل ان يرى
النور . وأريدك أن تفكر بي مثلما يفكر الملك الرؤوف
بسجين مات قبل أن يبلغه عفوه . أريدك أن تكون لي أخاً
وصديقاً ورفيقاً . أريدك أن تزور والذي في وحدته وتعزیه
في انفراده ، لأنني عما قريب سأتركه وأصير غريبة عنه .

فأجبتها : سأفعل كل ذلك يا سلمى . سوف أجعل روحي
غلافاً لروحك ، وقلبي بيتاً لجمالك ، وصدري قبراً لأحزانك .
سوف أحبك يا سلمى محبة الحقول للربيع . سوف أحيا بك
حياة الأزاهر بحرارة الشمس . سوف أترنم باسمك مثلما يترنم
الوادي بصدى رنين الأجراس المتأيلة فوق كنائس القرى .
سوف أصفي لأحاديث نفسك مثلما تصفي الشواطئ لحكاية
الأمواج ... سأذكرك يا سلمى مثلما يذكر الغريب المستوحش
وطنه المحبوب ، والفقير الجائع مائدة الطعام الشهية . والملك
المخلوع أيام عزه ومجده ، والأسير الكئيب ساعات الحرية
والطمأنينة . سوف أفكر بك مثلما يفكر الزارع بأغمار

السنابل وغلة البيادر ، والراعي الصالح بالمروج الخضراء
والمناهل العذبة .

كنت أنكلم وسلمى تنظر الى أعماق الليل وقتأوه بين الآونة
والأخرى ، ونبضات قلبها تتسارع وتتهاهل كأنها أمواج بحر بين
صعود وهبوط . ثم قالت : غداً تصير الحقيقة خيالاً واليقظة
حلماً ، فهل يكتفي المشتاق بعناق الخيال ويرتوي الظمان
من جداول الأحلام ؟

فأجبتها قائلاً : غداً يسير بك القدر إلى أحضان العائلة
المملوءة بالراحة والهدوء ، ويسير بي إلى ساحة العالم حيث
الجهاد والقتال . أنت الى منزل رجل يسعد بممالك وطهر
نفسك . وأنا إلى مكان أيام تعذبني بأحزانها وتخيفني
بأشباحها . أنت إلى الحياة وأنا إلى النزع . أنت إلى الأنس
والالفة وأنا إلى الوحشة والانفراد . ولكنني سأرفع في وادي
ظل الموت تمثالاً للحب وأعبده . سأخذ الحب سميراً وأسمعه
منشداً وأشربه خمرأ وألبسه ثوباً . عند الفجر سينبهي الحب
من رقادي ويسير أمامي إلى البرية البعيدة . وعند الظهيرة
سيقودني الى ظل الأشجار فأربض مع العصافير المحتمية من
حرارة الشمس . وفي المساء سيوقفني امام المغرب ويسمعي
نغمة وداع الطبيعة للنور ويريني أشباح السكينة ساجدة في
الفضاء . وفي الليل سيعانقني فأنام حالماً بالعوالم العلوية حيث
تقطن أرواح العشاق والشعراء . وفي الربيع سأمشي والحب

جنباً لجنب ، مترنمين بين التلول والمنحدرات متبعين آثار اقدام
الحياة المخططة بالبنفسج والاقحوان ، شاربين بقايا الامطار
بكوؤوس النرجس والزنبق . وفي الصيف سأتكىء والحب
ساندين رأسينا إلى أغمار القش مفترشين لاعشاب ملتحفين
السماء ساهرين مع القمر والنجوم . وفي الخريف سأذهب
والحب إلى الكروم فنجلس بقرب المعاصر ناظرين إلى الاشجار
وهي تخلع أثوابها المذهبة متأملين بأمراب الطيور الراحلة إلى
الساحل . وفي الشتاء سأجلس والحب بقرب الموقد تالين
حكايات الاجيال مرددين أخبار الامم والشعوب . وفي أيام
الشيبة سيكون لي الحب مهنبا ، وفي الكهولة عضداً ، وفي
الشيخوخة مؤنسا . سيظل الحب معي يا سلمى إلى نهاية
العمر ، إلى ان يجيء الموت ، إلى أن تجمعي بك قبضة الله .
كانت الالفاظ تتصاعد مسرعة من أعماق نفسي كأنها
شعلات من نار تنمو وتتطاير ثم تتبدد وتضمحل في زوايا تلك
الحديقة ، وكانت سلمى مصغية والدموع تنهمر من عينيها كأن
أجفانها شفاه تجيبني بالدموع على الكلام .

ان الذين لم يهبهم الحب أجنحة لا يستطيعون أن يطربوا
إلى ما وراء الغيوم ليروا ذلك العالم السحري الذي طافت فيه
روحي وروح سلمى في تلك الساعة المحزنة بأفراحها
المفرحة بأوجاعها . ان الذين لم يتخذهم الحب أتباعاً لا
يسمعون الحب متكلماً ، فهذه الحكاية لم تكتب لهم ؛ فهم
وأن فهموا معاني هذه الصفحات الضئيلة لا يمكنهم ان يروا ما

يسيل بين سطورها من الأشباح والأخيلة التي لا تلبس الحبر
ثوباً ولا تتخذ الورق مسكناً . لكن أي بشري لم يرشف من
خمرة الحب في إحدى كاساته ؟ أية نفس لم تقف متهيبة في
ذلك الهيكل المنير المرصوف بحبات القلوب المسقوف بالأسرار
والاحلام والعواطف ؟ أي زهرة لم يسكب الصباح قطرة من
الندى بين أوراقها ؟ وأي ساقية تفضل طريقها ولا تذهب إلى
البحر ؟

ورفعت سلمى إذ ذاك رأسها نحو السماء المزينة بالكواكب
ومدت يديها إلى الامام وكبرت عيناها وارتجفت شفتاها
وظهر على وجهها المصفر كل ما في نفس المرأة المظلومة من
الشكوى والقنوط والألم ، ثم صرخت قائلة : ماذا فعلت
المرأة يا رب فاستحقت غضبك ؟ ماذا أتت من الذنوب ليتبعها
سخطك إلى آخر الدهور ؟ هل اقررت جرماً لا نهاية لفظاعته
ليكون عقابك لها بغير نهاية ؟ أنت قوي يا رب وهي
ضعيفة فلماذا تبيدها بالأوجاع ؟ أنت عظيم وهي تدب حول
عرشك فلماذا تسحقها بقدميك ؟ أنت عاصفة شديدة وهي
كالغبار أمام وجهك فلماذا تدرىها على الثلوج ؟ أنت جبار
وهي بائسة فلماذا تحاربها ؟ أنت بصير عليم وهي قائمة عمياء
فلماذا تهلكها ؟ أنت توجدتها بالهبة فكيف بالهبة تفنيها ؟
بيمينك ترفعها اليك وبشمالك تدفعها إلى الهاوية وهي جاهلة
لا تدري أنى ترفعها وكيف تدفعها ؟ في فما تنفخ نسمة الحياة
وفي قلبها تورع بذور الموت . على سبل السعادة تسيرها راجلة

ثم تبعث الشقاء فارساً ليصطادها . في حنجرتها تبت نعمة
 الفرح ثم تغلق شفتيها بالحزن وتربط لسانها بالكآبة بأصابعك
 الخفية تمنطق باللذة أوجاعها وبأصابعك الظاهرة ترسم هالات
 الأوجاع حول ملذاتها . في مضجعها تخفي الراحة والسلامة
 ويحانب مضجعها تقيم المخاوف والمتاعب . بإرادتك تحيي
 ميولها . ومن ميولها تتولد عيوبها وزلاتها . بمشيئتك تربها محاسن
 مخلوقاتك وبمشيئتك تنقلب محبتها للحسن مجاعة مهلكة .
 بشريمتك تزوج روحها من جسد جميل وبقضائك تجعل
 جسدها بعلاً للضعف والهوان . أنت تسقيها الحياة بكأس
 الموت والموت بكأس الحياة . أنت تطهرها بدموعها وبدموعها
 قديبها . أنت تملأ جوفها من خبز الرجل ثم تملأ حفنة الرجل
 من حبات صدرها . أنت أنت يا رب قد فتحت عيني بالهبة
 وبالهبة أعميتني . أنت قبلتني بشفتيك وببيدك القوية صفعتني .
 أنت زرعت في قلبي وردة بيضاء وحول هذه الوردة أنبت
 الأشواك والحسك . أنت أوثقت حاضري بروح فتى أحبه
 ويمجد رجل لا أعرفه . قيدت أيامي فساعدني لأكون قوية
 في هذا الصراع المميت واسعفني لأبقى أمينة وطاهرة حتى
 الموت . . . لتكن مشيئتك يا رب . ليكن اسمك مباركاً
 إلى النهاية .

وسكنت سلمى وظلت ملاحظها تتكلم ، ثم حنت رأسها
 وأرخت ذراعيها وانخفض هيكلها كأن القوى الحيوية قد تركتها
 فبان لناظري كغصن قصفته العاصفة وألقته إلى الحضيض

ليجف ويندثر تحت أقدام الدهر . فأخذت يدها الثلجة بيدي
الملتبهة وقبلت أصابعها بأجفاني وشفقي ، ولما حاولت تعزيتها
بالكلام وجددتني أخرى منها بالتمزية والشفقة ، فبقيت صامتاً
حائراً متأملاً شاعراً بتلاعب الدقائق بعواطفي ، مصغياً
لأنّ قلبي في داخلي ، خائفاً من نفسي على نفسي .

ولم ينبس أحداً بنبت شفة في ما بقي من تلك الليلة ، لأن
اللوعة إذا عظمت تصير خرساء ، فبقينا ساكتين جامدين
كعمودي رخام قبرهما الزلزال في التراب . ولم يعد أحداً يريد
أن يسمع الآخر متكلماً ، لأن خيوط قلبينا قد وهت حتى
صار التنهد دون الكلام يقطعها .

انتصف الليل ونمت رهبة السكوت وطلع القمر ناقصاً من
وراء صنين وبان بين النجوم كوجه ميت صاحب غارق في
المساند السوداء بين شموع ضئيلة تحيط بنمشه . وظهر لبنان
كشيخ لوت ظهره الأعوام وأناخت هيكله الأحزان وهجر
أجفانه الرقاد فبات يساهر الدجى ويترقب الفجر كملك مخلوع
جالس على رماد عرشه بين خرائب قصره . انت الجبال
والأشجار والأنهار تتبدل هيئاتها ومظاهرها بتقلب الحالات
والأزمنة مثلما تتغير ملامح وجه الانسان بتغير أفكاره
وعواطفه ، فشجرة الحور التي تتعالى في النهار كمروس جميلة
يلعب النسيم أثوابها تظهر في المساء كعمود دخان يتصاعد نحو
اللاشيء والصخر الكبير الذي يجلس عند الظهيرة كجبار قوي
يهزأ بعاديات الزمن يبدو في الليل كفقير بائس يفترش الثرى

ويلتحف الفضاء . والساقية التي نراها عند الصباح متلعة
كذوب اللجين ونسمها مترنمة بأغنية الخلود نخالها في المساء
مجرى دموع يتفجر من بين أضلع الوادي ونسمها تنذب
وتنوح كالثكلى . ولبنان الذي ظهر منذ اسبوع بكل مظاهر
الجلال والرونق عندما كان القمر بدرأ والنفس راضية قد بان
في تلك الليلة كئيباً منهوكاً مستوحشاً أمام قمر ضئيل ناقص
هائم في عرض السماء . وقلب خافق معتل في داخل الصدر .
وقفنا للوداع وقد وقف بيننا الحب واليأس شبحين هائلين ،
هذا باسط جناحيه فوق رأسينا وذاك قابض بأظافره على
عنقينا . هذا يبكي مرتاعاً وذاك يضحك ساخراً . ولما أخذت
يد سلمى ووضعتها على شفتي متبركاً دنت مني ولثمت مفرق
شعري ، ثم عادت فارقت على المقعد الخشي وأطبقت أجفانها
وهمست ببطء : اشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة .
انفصلت عن سلمى وخرجت من تلك الحديقة شاعراً
بنقاب كثيف يوشي مداركي الحسية مثلما يغمر الضباب وجه
البحيرة . وسرت وأخيلة الأشجار القائمة على جانبي الطريق
تتحرك أمامي كأنها أشباح قد انبثقت من شقوق الأرض
لتخيفني ، وأشعة القمر الضعيفة ترتعش بين الفصون كأنها سهام
دقيقة تريشها أرواح الجان السابحة بالفضاء نحو صدري ،
والسكينة العميقة تخيم علي كأنها أكف سوداء ثقيلة القتها الظلمة
على جسدي .

كل ما في الوجود وكل معنى في الحياة وكل سر في النفس

قد صار قبيحاً رهيباً هائلاً ، فالنور المعنوي الذي أرايتي جمال
العالم وبهجة الكائنات قد انقلب ناراً تحرق كبدي بلهيبها
وتستر نفسي بدخانها ، والنغمة التي كانت تضم إليها أصوات
المخلوقات وتجعلها نشيد علويًا قد استحالت في تلك الساعة إلى
ضجيج أروع من زجرة الأسد وأعمق من صراخ الهاوية .

بلغت غرقتي وارتمت على فراشي كطائر رماه الصياد فسقط
بين السياج والسهم في قلبه . وظلت عاقلتي تراوح بين يقظة
مخيفة ونوم مزعج ، وروحي في داخلي تردد في الحالتين كلمات
سلمى : أشفق يا رب وشدد جميع الأجنحة المتكسرة .

أمسام عرش الموت



إنما الزبيجة في أيامنا هذه تجارة مضحكة مبكية يتولى أمورها الفتيان وآباء الصبايا، الفتيان يربحون في أكثر المواطن والآباء يخسرون دائماً، أما الصبايا المنتقلات كالسبع من منزل إلى آخر فتزول بهجتهم، ونظير الأمتعة العتيقة يصير نصيبهن زوايا المنازل حيث الظلمة والفناء البطيء.

إن المدنية الحاضرة قد أمنت مدارك المرأة قليلاً ولكنها أكثرت أوجاعها بشعم مطامع الرجل. كانت المرأة بالأمس خادمة سعيدة فصارت اليوم سيدة تعسة. كانت بالأمس عمياء تسير في نور النهار فأصبحت مبصرة تسير في ظلمة الليل. كانت جميلة يجهلها فاضلة ببساطتها قوية بضعفها فصارت قيحة بتفنتها سطحية بمداركها بعيدة عن القلب بمعارفها. فهل يجيء يوم يجتمع في المرأة الجمال بالمعرفة، والتفنن بالفضيلة، وضعف الجسد بقوة النفس؟ أنا من القائلين إن الارتقاء الروحي سنة في البشر، والتقرب من الكمال شريعة بطيئة لكنها فعالة فإذا كانت المرأة قد ارتقت بشيء وتأخرت بشيء آخر فلأن العقبات التي تبلغنا قمة الجبل لا تخلو من مكان اللصوص.

وكهوف الذئاب . ففي هذا الجبل الشبيه بالغيوبة التي تتقدم اليقظة - في هذا الجبل القابض بكفيه على تراب الاجيال الغابرة وبزور الاجيال الآتية - في هذا الجبل الغريب بميوله وأمانيه لا تخلو مدينة من امرأة ترمز بوجودها عن ابنة المستقبل . وسلمى كرامه كانت في بيروت رمز المرأة الشرقية العتيقة ، ولكنها كالكثيرين الذين يعيشون قبل زمانهم قد ذهبت ضحية الزمن الحاضر ، ونظير زهرة اختطفها تيار النهر قد صارت قهراً في موكب الحياة نحو الشقاء .

وتزوج منصور بك غالب من سلمى فسكننا معاً في منزل فخيم قائم على شاطئ البحر في رأس بيروت حيث يقطن وجهاء القوم والاعنياء وبقي فارس كرامه وحده في ذلك البيت المنفرد بين الحدائق والبساتين انفراد الراعي بين أغنامه ومضت أيام العرس وانقضت ليالي الأفراح ، وهر الشهر الذي يدغوه النساس عسلاً تاركاً وراءه شهور الخلل والعلقم مثلما تترك أمجاد الحروب جهاجم القتلى في البرية البعيدة . . . ان يهرجة الاعراس الشرقية تصعد بنفوس الفتيان والصبايا صعود النسر الى ما وراء الغيوم ثم تهبط بهم هبوط حجر الرخى الى اعماق اليم ، بل هي مثل آثار الأقدام على رمال الشاطئ لا تلبث أن تمحوها الأمواج .

وذهب الربيع وتلاه الصيف وجاء الخريف ومحبتي لسلمى تتدرج من شغف فتى في صباح العمر بامرأة حسناء إلى نوع من تلك العبادة الخرساء التي يشعر بها الصبي اليتيم نحو

روح أمه الساكنة في الأبدية ، فالصباية التي كانت تمتلك كليتي
 قد تحولت إلى كآبة عمياء لا ترى غير نفسها ، والولع الذي
 كان يستدر الدموع من عيني قد انقلب ولها يستقطر الدم من
 قلبي ، وأنة الحنين التي كانت تملأ ضلوعي أصبحت صلاة عميقة
 تقدمها روحي في السكينة أمام السماء مستمدة السعادة لسلى
 والغبطة لبعلمها والطمأنينة لوالدما ، ولكن باطلا كنت أشفق
 وابتهل وأصلي لأن تعاسة سلى كانت علة في داخل النفس لا
 يشفيها سوى الموت . أما بعنفا فكان من أولئك الرجال الذين
 يحصلون بغير تعب على كل ما يجعل الحياة هنيئة ولا يقنعون
 بل يطمحون دائما إلى ما ليس لهم ، وهكذا يظنون معذبين
 بمطامعهم إلى نهاية أيامهم . وباطلا كنت أرجو الطمأنينة
 لفارس كرامه لأن صهره لم يستلم يد ابنته ويحصل على أموالها
 الطائلة حتى نسيه وهجره بل صار يطلب حتفه توصلا إلى ما
 بقي من ثروته .

كان منصور بك شبيهاً بعمه المطران بولس غالب ، وكانت
 أخلاقه كأخلاقه ، ونفسه صورة مصغرة لنفسه ، ولم يكن
 الفرق بينها إلا بما يفرق الرياء عن الانحطاط . كان المطران
 يبلغ أمانيه مستتراً بأثوابه البنفسجية ويشبع مطامعه محتتماً
 بالصليب الذهبي المعلق على صدره ، أما ابن أخيه فكان يفعل
 كل ذلك جهاراً وعنوة . كان المطران يذهب إلى الكنيسة في
 الصباح ويصرف ما بقي من النهار منتزعاً الأموال من الأرامل

واليتامى وبسطاء القلب ، أما منصور بك فكان يقضي النهار كله متبعاً ملذاته ملاحقاً شهواته في تلك الأزقة المظلمة حيث يختمر الهواء بأنفاس الفساد .

كان المطران يقف يوم الأحد أمام المذبح ويعظ المؤمنين بما لا يتعظ به ويصرف أيام الأسبوع مشغولاً بسياسة البلاد ، أما ابن أخيه فكان يصرف جميع أيامه متاجراً بنفوذ عمه بين طالبي الوظائف ومريدي الوجاهة . كان المطران لصاً يسير مختبئاً بستائر الليل ، أما منصور بك فكان محتالاً يمشي بشجاعته في نور النهار .

كذا تبيد الشعوب بين اللصوص والمحتالين مثلما تفنى القطمان بين أنياب الذئاب وقواطع الجزارين ، وهكذا تستسلم الأمم الشرقية إلى ذوي النفوس المعوجة والأخلاق الفاسدة فتتراجع إلى الوراء ثم تهبط إلى الحضيض فيمر الدهر ويسحقها بأقدامه مثلما تسحق مطارق الحديد آنية الفخار .

وماذا يا ترى يجعلني الآن أشغل هذه الصفحات بالكلام عن أمم يائسة يائسة وأنا قد خصصتها لتدوين حكاية امرأة تاعسة وتصوير خيالات قلب وجيع لم يلمسه الحب بأفراحه حق صفعه بأحزانه ؟ .. لماذا تراود الدموع أجفائي لذكر شعوب خاملة مظلومة وأنا قد وقفت دموعي على ذكرى أيام امرأة ضعيفة لم تعانق الحياة حتى احتضنها الموت ،

ولكن أليست المرأة الضعيفة هي رمز الأمة المظلومة ؟
أليست المرأة المتوجعة بين ميول نفسها وقيود جسدها هي
كالأمة المتعذبة بين حكامها وكهانها ؟ أو ليست العواطف
الخفية التي تذهب بالصبية الجميلة الى ظلمة القبر هي كالعواصف
الشديدة التي تغمر حياة الشعوب بالتراب ؟ ان المرأة من الأمة
بمنزلة الشماع من السراج ، وهل يكون شعاع السراج ضئيلاً
إذا لم يكن زيتُه شحيحاً ؟

* * *

مضت ايام الخريف وعرت الرياح الأشجار متلاعببة
بأوراقها الصفراء مثلما تداعب الأنواء زبد البحر ، وجاء
الشتاء باكياً منتعباً وأنا في بيروت ولا رفيق لي سوى أحلام
تتصاعد بنفسي تارة فتبلغها الكواكب ، وتنخفض بقلبي طوراً
فتلحده يحوف الأرض .

ان النفس الكئيبة تجد راحة بالعزلة والانفراد فتتهجر الناس
مثلما يبتعد الغزال الجريح عن سربه ويتوارى في كهفه حتى
يبرأ او يموت .

ف ذات يوم سمعت باعتلال فارس كرامه ، فتركت وحدتي
وذهبت لميادته ماشياً على ممر منفرد بين أشجار الزيتون
المتلعة اوراقها الرصاصية بقطرات المطر ، متنحياً عن الطريق
العمومية حيث تزعج ضجة المركبات سكينه الفضاء .

الاجنحة المتكسرة (٥)

بلغت منزل الشيخ ودخلت عليه فوجدته ملقى على فراشه
مضنى الجسم ، شاحب الوجه ، أصفر اللون ، قد غرقت
عيناه تحت حاجبيه فباتتا كهوتين عميقتين مظلمتين تجول فيها
أشباح السقم والألم ، فاللامح التي كانت بالأمس عنوان
البشاشة والانبساط قد تقلصت واكفهرت واصبحت كصحيفة
رمادية متجعدة تكتب عليها العلة سطوراً عربية ملتبسة .
واليدان اللتان كانتا مغلفتين باللفظ واللدانة قد نحلتا حتى
بدت عظام اصابعها من تحت الجلد كقضبان عارية ترتعش أمام
العاصفة .

ولما دنوت منه سائلاً عن حاله حول وجهه المهزول نحوي
وظهر على شفتيه المرتجفتين خيال ابتسامة محزنة ، وبصوت
ضعيف خافت خلته أتياً من وراء الجدران قال : اذهب ،
اذهب يا ابني الى تلك الغرفة وامسح دموع سلمي وسكن
روعاها ثم عد بها إلي لتجلس بجانب فراشي . . .

دخلت الغرفة المحاذية فوجدت سلمي منطرحة على مقعد
وقد غمرت رأسها بزنديها وغرقت وجهها بالمسند وأمسكت
أنفاسها كيلا يسمع والدها نحيبها . فاقتربت منها ببطء
ولفظت اسمها بصوت أقرب الى التنهد منه الى الهمس ،
فتحركت مضطربة كنائم تراوده الأحلام الخفيفة ثم استوت على
مقعداها ونظرت إلي بعينين شاخصتين جامدتين كأنها ترى
شبحاً في عالم الرؤيا ولا تصدق حقيقة وجودي في ذلك
المكان .

وبعد سكوت عميق أرجعنا بتأثيراته السحرية الى تلك
الساعات التي سكرنا فيها من خمرة الآلهة مسحت سلمى
دموعها بأطراف اناملها وقالت متحسرة : أرأيت كيف
تبدلت الأيام ؟ أرأيت كيف أضلنا الدهر فسرنا مسرعين الى
هذه الكهوف المفزعة ؟ في هذا المكان جمعنا الربيع في قبضة
الحب ، وفي هذا المكان يجمعنا الآن الشتاء امام عرش
الموت ، فما أبهى ذلك النهار وما أشد ظلمة هذا الليل .

قالت هذه الكلمات وقد ابتلعت الغصات وأخرها ثم
عادت فسترت وجهها بيديها كأن ذكرى الماضي قد تجسدت
ووقفت أمامها فلم تشأ ان تراها . فوضعت يدي على شعرها
قائلا : تعالي يا سلمى ، تعالي ننتصب كالأبراج أمام الزوبعة .
هلمي نقف كالجنود أمام الأعداء متلقين سفار السيوف
بصدورنا لا بظهورنا ، فان صرعنا نموت كالشهداء وان تغلبنا
نعيش كالأبطال . . . ان عذاب النفس بثباتها امام المصاعب
والمتعاب هو اشرف من تقهقرها الى حيث الامن والطمانينة .
فالفراشة التي تظل مرفرفة حول السراج حتى تحترق هي
أسمى من الخلد الذي يعيش براحة وسلامة في نفقه المظلم .
والنواة التي لا تحتل برد الشتاء وثورات العناصر لا تقوى على
شق الأرض ولن تفرح بجبال نيسان . . . هلمي نسري سلمى
بقدم ثابتة على هذه الطريق الوعرة . رافعين اعيننا نحو الشمس
كيلا نرى الجماجم المطروحة بين الصخور ، والافاعي المنسابة
بين الاشواك ، فان اوقفنا الخوف في منتصف الطريق

أسمعنا أشباح الليل صراخ الاستهزاء والسخرية ، وان بلغنا
قمة الجبل بشجاعة تترنم معنا ارواح الفضاة بانشودة النصر
والاستظهار . . . خففي عنك يا سلمى وجففي دموعك
واخفي هذه الكتابة الظاهرة على محياك وقومي مجلس بجانب
فراش والدك لان حياته من حياقتك وشفاهه بابتسامك .

فنظرت إلي نظرة ملؤها الحنان والرافة والانعطاف ثم
قالت : أتطلب مني الصبر والتجملد وفي عينيك معنى اليأس
والقنوط ؟ أيعطي الفقير الجائع خبزه للجائع الفقير ؟ أو يصف
العليل دواء لعليل آخر وهو أحرى بالدواء ؟

ثم وقفت وسارت أمامي منحنية الرأس الى غرفة والدها .
جلسنا بقرب مضجع الشيخ العليل وسلمى تتكلف الابتسام
وهدهوء البال وهو يتكلف الراحة والقوة ، وكل منها شاعر
بلوعة الآخر ، عالم بضعفه ، سامع غصات قلبه ، فكانا مثل
قوتين متضارعتين يفني بعضها بعضاً في السكينة . والد دنف
يذوب ضنى لتعاسة ابنته ، وابنة محبة تذبل متوجعة بعلة
والدها . نفس راحلة ونفس يائسة تتعانقان أمام الحب والموت ،
وأنا بينها أتحمل ما بي وأقاسي ما بها . ثلاثة جمعتهم يد القضاء
ثم قبضت عليهم بشدة حتى سحقتهم : شيخ يثقل بيتاً قديماً هدمه
الطوفان ، وصبية تحاكي زنبقة قطع عنقها حد المنجل ،
وفق يشابه غرسة ضعيفة لوت قامتها الثلوج ، وجميعنا مثل
العوبة بين أصابع الدهر .

وتحرك الشيخ إذ ذاك بين اللحف ومد يده النحيصة نحو
سلى ، وبصوت أودعه كل ما في قلب الأب من الرقة والرافة
وكل ما في الصبر العليل من السقم والألم قال : ضعي يدك في
يدي يا سلى .

فمدت يدها وألقتها بين أصابعه فضمها بلطف ثم زاد
قائلاً : لقد شبت من السنين يا ولدي ، قد عشت طويلاً
وتلذذت بكل ما تثمره الفصول وتمتعت بكل ما تبرزه الأيام
والليالي ، قد لاحقت الفراش صبياً وعانقت الحب فتى
وجمعت المال كهلاً ، وكنت في جميع هذه الأدوار سعيداً
مغتبطاً . فقدت أمك يا سلى قبل ان تبلغني الثالثة ولكنها
أبقتك لي كنزاً ثميناً ، فكنت تتمين بسرعة نمو الهلال
وتنعكس على وجهك ملامح أمك مثلما تنعكس أشعة النجوم
في حوض ماء هاديء ، وتظهر أخلاقها ومزاياها بأعمالك
وأقوالك ظهور الحلي الذهبية من وراء النقاب الرقيق ،
فتمزيت بك يا ولدي لأنك كنت مثلها جميلة وحكيمة . . .
والآن قد صرت شيخاً طاعناً وراحة الشيوخ بين أجنحة
الموت الناعمة ، فتعزي يا ولدي لأنني بقيت لأراك امرأة كاملة ،
وافرحي لأنني سأبقى بك حياً بعد موتي . إن ذهابي الآن هو
مثل ذهابي غداً أو بعده ، لأن إيماننا مثل أوراق الخريف ،
تتساقط وتلبدد امام وجه الشمس فان أسرع بي الساعات
إلى الأبدية فلأنها علمت ان روحي قد اشتاقت الى لقاء أمك .

لفظ الكلمات الأخيرة بنغمة مفعمة بحلاوة الحنين والرجاء
 ولاحت على وجهه المنقبض أشعة شبيهة بذلك النور الذي
 ينبثق من أجفان الأطفال ، ثم مد يده بين المساند المحيطة
 برأسه وانتشل صورة صغيرة قديمة ينطقها إطار من الذهب
 قد نعمت حدوده ملامس الأيدي ومحت نقوشه قبل الشفاه ،
 ثم قال دون ان يحول عينيه عن الرسم : اقتربي ياسلمى ،
 اقتربي مني يا ولدي لأريك خيال أمك . تعالي وانظري ظلها
 على صفحة من الورق .

فدنت سلمى ماسحة الدموع من مقلتيها كيلا تحول بين
 ناظريها والرسم الضئيل ، وبعد ان حدقت اليه طويلا كأنه
 ممرآة تعكس معانيها وشكل وجهها قريته من شفيتها وقبلته
 بلهفة مراراً متوالية ثم صرخت قائلة : يا أماء . يا أماء .
 يا أماء ! ولم تزد على هذه الكلمة بل عادت فوضعت الرسم
 على شفيتها المرتعشتين كأنها تريد ان تثبت فيه الحياة بأنفاسها
 الحارة ...

ان أعذب ما تحدثه الشفاه البشرية هو لفظة « الأم » ،
 وأجمل مناداة هي : يا أمي . كلمة صغيرة كبيرة مملوءة
 بالأمل والحب والانعطاف وكل ما في القلب البشري من الرقة
 والحلاوة والعدوية . الأم هي كل شيء في هذه الحياة ، هي
 التعزية في الحزن ، والرجاء في اليأس ، والقوة في الضعف
 هي ينبوع الحنو والرافة والشفقة والغفران ، فالذي يفقد

أمه يفقد صدرأ يسند اليه رأسه ويدأ تباركه وعينأ
تخرسه ...

كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الامومة ، فالشمس
هي أم هذه الأرض ترضعها حرارتها وتحتضنها بنورها ولا
تغادرها عند المساء إلا بعد ان تنومها على نعمة أمواج البحر
وترنيمة العصافير والسواقي ، وهذه الأرض هي ام للشجار
والأزهار تلدتها وترضعها ثم تفظمها . والأشجار والأزهار
تصير بدورها أمهات حنونات للأثمار الشبية والبزور الحية .
وأم كل شيء في الكيان هي الروح الكلية الأزلية الأبدية
المملوءة بالجمال والمحبة .

وسلمى كرامه لم تكن تعرف امها لأنها ماتت وهي طفلة،
وقد شقت متأثرة عندما رأت رسمها ونادتها : يا أماه ، قسر
إرادتها ، لأن لفظة الأم تختبئ في قلوبنا مثلما تختبئ النواة
في قلب الأرض ، وتنبتق من بين شفاهننا في ساعات الحزن
والفرح كما يتصاعد العطر من قلب الوردة في الفضاء الصافي
والمطر .

كانت سلمى تحدى الى رسم أمها ثم تقبله بلهفة ثم تلاه إلى
صدرها الخفوق ثم تتأوه متنهدة ومع كل تنهدة تفقد جزءاً من
قواها ، حتى إذا ما وهت الحياة في جسدها النحيل هوت
وسقطت بجانب سرير أبيها ، فوضع كلتا يديه على رأسها
قائلاً : قد أريتك يا ولدي شبح أمك على صفحة من الورق ،
فاصني إلي لأسمعك أقوالها .

فرفعت سلمى رأسها مثلما تفعل الفراخ في العش عندما تسمع حفيف أجنحة العصفورة بين القضبان ، ونظرت اليه مصغية صاغرة كأن ذاتها المعنوية قد استحالت الى أعين محدقة وآذان واعية .

فقال والدها : كنت طفلة رضية عندما فقدت أمك والدها الشيخ فحزنت لفقده وبكت بسكاء حكيم متجلد ، ولكنها لم تعد من بجانب قبره حتى جلست بجانبي في هذه الغرفة وأخذت يدي براحتها وقالت : قد مات والدي يا فارس وأنت باق لي وهذه هي تعزيتي . ان القلب بمواطفه المتشعبة يماثل الارزة بأغصانها المتفرقة ، فإذا ما فقدت شجرة الأرز غصناً قوياً تتألم ولكنها لا تموت بل تحول قواها الحيوية الى الغصن المجاور لينمو ويتعالى ويملاً بفروعه الغضة مكان الغصن المقطوع . هذا ما قالته والدتك يا سلمى عندما مات أبوها وهذا ما يجب عليك ان تقوليهِ عندما يأخذ الموت جسدي إلى راحة القبر وروحي إلى ظل الله .

فأجابت سلمى متفجعة : فقدت أمي والدها فبقيت أنت لها ، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي ؟ مات والدها وهي في ظلال زوج محب فاضل أمين ، مات والدها فبقي لها طفلة تغمر رأسها الصغير بشديها وتطوق عنقها بذراعيها ، فمن يبقى لي إذا فقدتك يا والدي ؟ أنت أبي وأمي ورفيق حداثتي ومهذب شببتي ، فمن أستعوض إذا ما ذهبت عني ؟ .

قالت هذا وحولت عينيها الدامعتين نحو بي وأمسكت
 بيمينها طرف ثوبي ثم قالت : ليس لي غير هذا الصديق يا
 والدي ولن يبقى لي سواه إذا ما تركتني ، فهل أتعزى به
 وهو متعذب مثلي ؟ هل يتعزى كسير القلب بالقلب الكسير ؟
 ان الحزينة لا تتصبر بحزن جارتها كما ان الحمامة لا تطير بأجنحة
 مكسورة . هو رفيق لنفسي ولكنني قد أثقلت عاتقه
 بأشجاني حتى لويت ظهره وسملت عينيه بعبراتي فلم يعد يرى
 غير الظلمة . هو أخ أحبه ويحبني ولكنه مثل جميع الأخوة
 يشترك بالمصيبة ولا يخففها ، ويساعد بالبكاء فيزيد الدمع مرارة
 والقلب احتراقاً .

كنت اسمع سلمى متكلمة وعواطفها تنمو وصدري يضيق
 حتى شعرت بأن أضلعي تكاد تتفجر حناجر وفوهات ، أما
 الشيخ فكان ينظر اليها وجسده المهزول يهبط ببطء بين الوسائد
 والمساند ، ونفسه المتعبة ترتجف كشعلة السراج امام الريح ،
 ثم بسط ذراعيه وقال بهدوء : دعيني أذهب بسلام يا ولدي ،
 لقد لمحت عينايا ما وراء الغيوم ، فلن أحولها نحو هذه
 الكهوف . دعيني أطيّر فقد كسرت بأجنحتي قضبان هذا
 القفص ... قد نادتني أمك يا سلمى فلا توقفيني ... ها قد
 طابت الريح وتبدد الضباب عن وجه البحر فرفعت السفينة
 شراعها وتأهبت للمسير فلا توقفها ولا تنزعني دفتها . دعني
 جسدي يرقد مع الذين رقدوا ودعني روحي تستيقظ لأن الفجر
 قد لاح والحلم قد انتهى ... قبلي روحي بروحك ... قبلي

قبلة رجاء وأمل ولا تسكي قطرة من مرارة الحزن على جسدي
 لئلا تمتنع الاعشاب والازهار عن امتصاص عناصره . ولا
 تدرني دموع اليأس على يدي لأنها تنبت شوكا على قبوري . ولا
 ترسمي بزفرات الامى سطرأ على جبهتي لأن نسيم السحر يمر
 ويقرأه فلا يحمل غبار عظامي الى المروج الخضراء .. قد
 أحببتك بالحياة يا ولدي وسوف أحبك بالموت فتظل روحي
 قريبة منك لتحريك وترعاك .

والتفت الشيخ إلي وقد انطبقت أجفانه قليلاً فلم أعد أرى
 سوى خطين رماديين مكان عينيه ، ثم قال وسكينة الفناء
 تسترق ألفاظه : أما أنت يا ابني فكن أخاً لسلي مثلما كان
 والدك لي . كن قريباً منها في ساعات الشدة ، وكن صديقاً
 لها حق النهاية ، ولا تدعها تحزن لأن الحزن على الاموات غلطة
 من أغلاط الأجيال الفاسدة . بل اتل على مسمعا أحاديث
 الفرح وأنشدها أغاني الحياة فتسلو وتتناسي ... قل لأبيك أن
 يذكرني ، سه فيخبرك عن مآتي أيامي عندما كان الشباب
 يخلق بنا إلى الغيوم .. قل له انني احببته بشخص ابنه في
 آخر ساعة من حياتي ...

وسكت دقيقة وظلت أشباح ألفاظه تدب على جدران
 الغرفة ، ثم عاد فنظر إلي وإلى سلي بوقت واحد وقال
 همساً : لا تدعوا طبيباً ليطلق بمساحيقه ساعات سجنني لان
 أيام العبودية قد مضت فطلبت روحي حرية الفضاء . ولا

تدعوا كهناً إلى بجانب فراشي لان تمازييه لا تكفر عن
ذنوبي ان كنت خاطئاً ، ولا تسرع بي الى الجنة ان كنت
بارئاً . ان ارادة البشر لا تغير مشيئة الله كما ان الممجدين لا
يحولون مسير النجوم . اما بعد موتي فليفعل الأطباء والكهان
ما شاؤوا ، فاللجة تنادي اللجة اما السفينة فتظل سائرة
حق تبلغ الساحل ...

* * *

عندما انتصف ذلك الليل الخفيف فتح فارس كرامه عينيه
الغارقتين في ظلمة النزع ، فتحبها لآخر مرة ، وحولها نحو
ابنته الجاثية بجانب مضجعه ، ثم حاول الكلام فلم يستطع
لان الموت كان قد تشرب صوته فخرجت هذه الالفاظ لهاثاً
عميقاً من بين شفثيه : ما قد ذهب الليل ... وجاء الصباح ...
يا سلمى . يا . يا سلمى ...

ثم نكس رأسه وابيض وجهه وابتسمت شفثاه وأسلم
الروح .

ومدت سلمى يدها ولمست يد والدها فوجدتها باردة
كالثلج ، فرفعت رأسها ونظرت اليه فرأت وجهه مبرقماً
بنقاب الموت ، فجمدت. الحياة في جسدها وجفت الدموع في
محاجرها ، فلم تتحرك ولم تصرخ ولم تتأوه ، بل بقيت محدة
اليه بعينين جامدتين كعيني التمثال ، ثم تراخت أعضاؤها مثلما
تراخي طيات الثوب البليل ، وهبطت حتى لمست جبهتها

الارض ، ثم قالت يهدوء: اشفق يا رب وشدد جميع الاجنحة المتكسرة .

* * *

مات فارس كرامه وعانقت الابدية روحه واسترجع التراب جسده ، واستولى منصور بك على أمواله وظلت ابنته أسيرة تعاستها ترى الحياة مأساة هائلة تمثلها الخراف أمام عينها .

أما أنا فكنت ضائماً بين أحلامي وهواجسي ، تفتابني الأيام والليالي مثلما تفتاب النور والعقبان لسان الفريسة . فكيم حاولت أن أفقد ذاتي بين صفحات الكتب لعلي استأنس بأخيلة الذين طوامم الدهر ، وكم جربت أن أنسى حاضري لأعود بقراءة الاسفار إلى مسارح الأجيال الغابرة ، فلم يجديني كل ذلك نفعا بل كنت كمن يحاول اخماد النار بالزيت ، لأنني لم أكن أرى من مواكب الاجيال سوى اشباحها السوداء ، ولا أسمع من أنغام الأمم غير الندب والنواح ، فسفر ايوب كان عندي أجمل من مزامير داود ، ومراثي ارميا كانت أحب لدي من نشيد سليمان ، ونكبة البرامكة أشد وقعاً في نفسي من عظمة العباسيين ، وقصيدة ابن زريق أكثر تأثيراً من رباعيات الخيام ، ورواية هملت أقرب الى قلبي من كل ما كتبه الافرنج .

كذا يضعف القنوط بصيرتنا فلا نرى غير اشباحنا الرهيبة ، وهكذا يصم اليأس آذاننا فلا نسمع غير طرقات قلوبنا المضطربة .

بين عشتروت والمسيح



بين تلك البساتين والتلول التي تصل أطراف بيروت بأذيال لبنان يوجد معبد صغير قديم العهد محفور في قلب صخرة بيضاء قائمة بين أشجار الزيتون واللوز والصفصاف . ومع ان هذا المعبد لا يبعد أكثر من نصف ميل عن طريق المركبات فقد قل من عرفه من محبي الآثار والخرائب القديمة ، فهو مثل أشياء كثيرة خطيرة في سوريا محتبىء وراء ستائر الاهیال ، فكان الاهیال قد أبقاه محجوباً عن عیون الأثریین لیجعلہ خلوة لنفوس المتعبین ومزاراً للمحبین المستوحشین .

والداخل الى هذا المعبد العجیب یرى علی الجدار الشرقي منه صورة فينيقية الشواهد والبینات محفورة في الصخر قد محت أصابع الدهر بعض خطوطها ولونت الفصول معالمها ، وهي تمثل عشتروت ربة الحب والجمال جالسة علی عرش فخم ومن حولها سبع عذارى عاریات واقفات بهیئات مختلفة ، فالواحدة منهن تحمل مشعلا والثانية قيثارة والثالثة مبخرة والرابعة جرة من الخمر والخامسة غصناً من الورد

والسادسة إكليلا من الغار والسابعة قوساً وسهاماً ، وجميعهن ناظرات الى عثرتوت وعلى وجوههن سماء الخضوع والامتثال . وعلى الجدار الثاني صورة أخرى أحدث عهداً وأكثر ظهوراً تمثل يسوع الناصري مصلوباً والى جانبه أمه الحزينة ومريم المجدلية وامرأتان ثانيتان تنتحبان . وهذه الصورة البيزنطية الأسلوب والقرائن تدل على كونها حفرت في القرن الخامس او السادس للمسيح .

وفي الجدار الغربي كوفتان مستديرتان يدخل منها شعاع الشمس عند أصيل النهار وينسكب على الصورتين فتظهران كأنها قد طلبتا بماء الذهب .

وفي وسط المعبد حجر من الرخام مربع الشكل على جوانبه نقوش ووسامات قديمة الطراز قد المنحجب بعضها تحت كتلات متحجرة من الدماء تدل على أن الأقدمين كانوا ينحرون ذبائحهم على هذا الحجر ويصبون فوقه قرابين الخمر والطر والزيت .

ولم يكن في هذا المعبد الصغير شيء آخر سوى سكينه عميقة تعانق النفس وهيبه سحرية تبيح بتموجاتها أسرار الآلهة وتتكلم بلا نطق عن مآتي الأجيال الغابرة ومسير الشعوب من حالة الى حالة ومن دين الى دين ، وتستميل الشاعر الى عالم بعيد عن هذا العالم ، وتقنع الفيلسوف بأن الانسان مخلوق دين يشعر بما لا يراه ويتخيل ما لا تقع عليه حواسه ، فيرسم لشعوره رموزاً تدل بمعانيها على خفايا نفسه

ويجسم خياله بالكلام والانفسام والضور والتأثيل التي تظهر بأشكالها أقدس ميوله في الحياة واجمل مشتبهاته بعد الموت .

في هذا الهيكل المجهول كنت ألتقي سلمى كرامه مرة في الشهر فنصرف الساعات الطوال ناظرين إلى الصورتين الغريبتين مفكرين بفق الأجيال المصلوب فوق الجلجلة مستحضرين إلى غيلتينا أشباح الفتيان والصبايا الفينيقيين الذين عاشوا وعشقوا وعبدوا الجمال بشخص عشوت فحرقوا البخور امام تماثيلها وهرقوا الطيوب على مذابحها ثم طوتهم الارض فلم يبق منهم سوى اسم تردده الأيام أمام وجه الأبدية .

كم يصعب علي الآن ان أدون بالكلام ذكرى تلك الساعات التي كانت تجمعني بسلمى ، تلك الساعات العلوية المكتنفة باللذة والألم ، والفرح والحزن ، والأمل واليأس ، وكل ما يجعل الانسان انساناً والحياة لغزاً ابدياً . ولكن كم يصعب علي أن أذكرها ولا أرسم بالكلام الضئيل خيالاً من أخيلتها ليبقى مثلاً لأبناء الحب والكآبة .

كنا نختلي في ذلك الهيكل القديم فنجلس في بابه ساندين ظهرينا إلى جداره مرددين صدى ماضينا مستقصين ما تي حاضرنا خائفين مستقبلنا . ثم نترج إلى اظهار ما في أعماق نفسينا فيشكو كل منا لوعته وحرقة قلبه وما يقاسيه من الجزع والحسرة ، ثم يصبر واحداً الآخر باسطاً أمامه كل ما في جيوب الأمل من الأوهام المفرحة والأحلام العذبة ، فيهدأ

روعنا وتجف دموعنا وتفرج ملاحنا ، ثم نبتم متناسين كل شيء سوى الحب وافراحه ، منصرفين عن كل أمر إلا النفس وميوها ، ثم نتعانق فنذوب شغفا وهياما ، ثم تقبل سلمى مفرق شعري بطهر وانعطاف فتملأ قلبي شعاعا ، وأقبل أطراف اصابعها البيضاء فتغمض عينيها وتلوي عنقها العاجي وتتورد وجنتاهما باحمرار لطيف يشابه الأشعة الأولى التي يلقيها الفجر على جباه الروابي . ثم نسكت وننظر طويلا نحو الشفق البعيد حيث الغيوم المتلونة بأنوار المغرب البرتقالية .

ولم تكن اجتماعاتنا مقتصرة على مبادلة العواطف وبث الشكوى ، بل كنا ننتقل على غير معرفة منا الى العموميات فن تبادل الآراء والأفكار في شؤون هذا العالم الغريب وتباحث في مرامي الكتب التي كنا نقرأها ذاكرين حسناتها وسيئاتها وما تنطوي عليه من الصور الخيالية والمبادئ الاجتماعية ، فتكلم سلمى عن منزلة المرأة في الجامعة البشرية وعن تأثير الأجيال الغابرة في أخلاقها وميوها وعن العلاقة الزوجية في أيامنا هذه وما يحيط بها من الأمراض والمفاسد . واني أذكر قولها مرة : ان الكتاب والشعراء يحاولون إدراك حقيقة المرأة ولكنهم للآن لم يفهموا اسرار قلبها ونخبآت صدرها لأنهم ينظرون اليها من وراء نقاب الشهوات فلا يرون غير خطوط جسدها او يضعونها تحت مكبرات الكره فلا يجدون فيها غير الضعف والاستسلام .

وقولها لي مرة أخرى وقد أشارت بيدها إلى الرسمين
المحفورين على جدران الهيكل : في قلب هذه الصخرة قد
نقشت الأجيال ومزين يظهران خلاصة ميول المرأة ويستجلبان
غوامض نفسها المراوحة بين الحب والحزن ، بين الانعطاف
والتضحية ، بين عشقوت الجالسة على العرش ومريم الواقفة
أمام الصليب ... ان الرجل يشتري المجد والعظمة والشهرة
ولكن هي المرأة التي تدفع الثمن .

ولم يدر باجتماعاتنا السرية أحد سوى الله وأسراب العصافير
المتطاهرة بين تلك البساتين ، فسلمى كانت تجيء بمركبتها الى
المكان المدعوب بحديقة الباشا ثم تسير الهويناء على الممرات المنفردة
حتى تبلغ المعبد الصغير فتدخله مستندة إلى مظلتها وعلى وجهها
لوائح الأمن والطمأنينة فتجدني منتظراً متوقفاً مشتاقاً بكل ما
في الشوق من الجوع والعطش .

ولم تخف قط عين الرقيب ولا شعرنا بوخز الضمير ، لأن
النفس اذا تطهرت بالنار واغتسلت بالدموع تترفع عما يدعو
الناس عيباً وعاراً وتتحرر من عبودية الشرائع والنواميس التي
سنتها التقاليد لعواطف القلب البشري وتقف برأس مرفوع
أمام عروش الآلهة .

ان الجامعة البشرية قد استسلمت سبعين قرناً الى الشرائع
الفاصلة فلم تعد قادرة على إدراك معاني النواميس العلوية
الأولية الخالدة . وقد تعودت بصيرة الانسان النظر الى ضوء

الشموع الضئيلة فلم تعد تستطيع ان تحقق الى نور الشمس .
لقد توارثت الأجيال الأمراض والعايات النفسية بعضها عن
بعض حتى أصبحت عمومية ، بل صارت من الصفات الملازمة
للانسان فلم يعد الناس ينظرون اليها كعايات وأمراض بل
يعتبرونها كخلال طبيعية نبيلة أنزلها الله على آدم ، فإذا ما
ظهر بيتهم فرد خال منها ظنوه ناقصاً محروماً من الكمالات
الروحية .

أما الذين سيعيبون سلمى كرامه محاولين تلويث اسمها
لأنها كانت تترك منزل زوجها الشرعي لتختلي برجل آخر
فهم من السقاء الضعفاء الذين يحسبون الأصحاء مجرمين وكبار
النفوس متمردين . بل هم كالحشرات التي تدب في الظلمة
وتخشى الخروج إلى نور النهار كيلا تدوسها أقدام العابرين .

ان السجين المظلوم الذي يستطيع ان يهدم جدران سجنه
ولا يفعل يكون جباناً . وسلمى كرامه كانت سجينه مظلومة
ولم تستطع الانعتاق ، فهل تلام لأنها كانت تنظر من وراء
نافذة السجن الى الحقول الخضراء والفضاء الواسع ؟ هل
يحسبها الناس خائنة لأنها كانت تجيء من منزل منصور بك
غالب لتجلس بجانبه بين عثروت المقدسة والجبار
المصلوب ؟ ليقل الناس ما شأؤوا ، فسلمى قد اجتازت
المستنقعات التي تغمر أرواحهم وبلغت ذلك العالم الذي لا
يلفه عواء الذئاب وفحيح الأفاعي . وليقل الناس ما أرادوا

عني ، فالنفس التي شاهدت وجه الموت لا تدعها وجوه
الصوص ، والجندي الذي رأى السيوف محتبكة فوق رأسه
وسواقى الدماء تجري تحت قدميه لا يحفل بالحجارة التي يرشقه
بها صبيان الأزقة .

التضحية



ففي يوم من اواخر حزيران وقد ثقلت وطأة الحر في
السواحل وطلب الناس أعالي الجبال ، سرت كعادتي نحو ذلك
المعبد واعدأ نفسي بلقاء سلمى كرامه حاملا بيدي كتاباً
صغيراً من الموشحات الاندلسية التي كانت في ذلك العهد ولم
تزل الى الآن تستميل روحي .

بلغت المعبد عند الاصيل فجلست ارقب الطريق المناسبة
بين اشجار الليمون والصفصاف ، وانظر من وقت الى آخر
الى وجه كتلي مامساً في مسامع الاثير ابيات تلك الموشحات
التي تستهوي القلب برشاقة تراكيبيها وورنة اوزانها .، وتعيد
الى النفس ذكرى أمجاد الملوك والشعراء والفرسان الذين ودعوا
غرناطة وقرطبة واشبيلية تاركين في قصورها ومعاهدها
وحدائقها كل ما في ارواحهم من الآمال والميول ثم تواروا
وراء حجب الدهور والدمع في اجفانهم والحسرة في أكبادهم .

وبعد ساعة التفت فاذا بسلمى تيس بقدها النحيل بين
الاشجار المتبكة وتقترب نحوي مستندة الى مظلتها كأنها

تحمل كل ما في العالم من الهموم والمتاعب . ولما بلغت باب الهيكل وجلست بقربي نظرت الى عينيها الكبيرتين فرأيت فيها معاني وأسراراً جديدة غريبة توحى التحذر والانتباه وكثير حب الاستطلاع والاستقصاء .

وشعرت سلمى بما يحول في خاطري فلم تشأ أن يطول الصراع بين ظنوني وهواجسي ، فوضعت يدها على شعري . وقالت : اقرب مني ، اقرب مني يا حبيبي ، اقرب ودعني أزود نفسي منك ، فقد دنت الساعة التي تفرقنا الى الأبد . فصرخت قائلاً : ماذا تعنين يا سلمى ، وأية قوة تستطيع أن تفرقنا الى الأبد ؟

فأجابت : ان القوة العمياء التي فرقنا بالأمر ستفرقنا اليوم . القوة الخرساء التي تتخذ الشرائح البشرية ترجماناً عنها قد بنت بأيدي عبيد الحياة حاجزاً منيعاً بيني وبينك . القوة التي أوجدت الشياطين وأقامتهم أولياء على أرواح الناس قد حتمت علي ان لا أخرج من ذلك المنزل المبني من العظام والجماجم .

فسألتها قائلاً : هل علم زوجك باجتماعنا فصرت تخشين غضبه وانتقامه ؟

فأجابت إن زوجي لا يحفل بي ولا يدري كيف أصرف أيامي ، فهو مشغول عني بأرلئك الصبايا المسكينات اللواتي تقودهن الفاقة الى أسواق النخاسين فيتمطرن ويكتحلن ليمن أجسادهن بالخبز المعجون بالدماء والدموع .

فقلت : إذا ماذا يصدك عن المجيء الى هذا المعبد والجلوس بجانبى أمام هبة الله وأشباح الأجيال ؟ هل فلتت النظر الى خفايا نفسي فطلبت روحك الوداع والتفريق ؟

فأجابت والدمع يراود اجفانها : لا يا حبيبي . إن روحي لم تطلب فراقك لأنك شطرها ، ولا ملت عيناي النظر اليك لأنك نورها . ولكن إذا كان القضاء قد حكم علي أن أسير على عقبات الحياة مثقلة بالقيود وبالسلاسل . فهل أرضى أن يكون نصيبك من القضاء مثل نصيبي ؟

فقلت : تكلمي يا سلمى واخبريني عن كل شيء ولا تتركيني ضائعاً بين هذه المعميات .

فأجابت : لا أقدر أن أقول كل شيء ، لأن اللسان الذي أخرسته الأوجاع لا يتكلم ، والشفاة التي ختم عليها اليأس لا تتحرك ، وكل ما أقدر أن أقوله لك هو أنى أخاف عليك من الوقوع في شرك الدين نصبوا لي الحبائل واصطادوني .

فقلت : ماذا تعنين يا سلمى ومن هم الذين تخافين علي منهم ؟

فسترت وجهها بيديها وتأومت ملتاعة ثم قالت مترددة : ان المطران بولس غالب قد صار يعلم بأننى أخرج مرة في الشهر من القبر الذي وضعني فيه .

فقلت : وهل علم المطران بأنك تلتقين بي في هذا المكان ؟ فأجابت : لو علم بذلك لما رأيتنى الآن جالسة بقربك ،

ولكن الشكوك تخامره والظنون تتلاعب بأفكاره ، وقد بث عليّ العميون لثقبني وأوعز إليّ خذمه ليتجسسوا حركاتي حتى صرت أشعر بأن للمنزل الذي أسكنه والطرق التي أسير عليها نواظر تمدق بي وأصابع تشير إليّ وآذاناً تسمع همس أفساري .

وأطرقت هنيئة ثم زادت والدمع ينسكب على وجنتيها :
 أنا لا أخاف على نفسي من المطران لأن الغريق لا يخشى البلبل ، ولكنني أخاف عليك وأنت حر كنور الشمس أنت تقع مثلي في أشراكه فيقبض عليك بأظافره . وينهشك بأنيابه أنا لا أخاف من الدهر لأنه أفرغ جميع سهامه في صدري ، ولكنني أخاف عليك وأنت في ربيع العمر أن تلسع الأفعى قدميك وتوقفك عن المسير نحو قمة الجبل حيث ينتظرك المستقبل بأفراجه وأمجاده .

فقلت : ان من لا تلمسه أفاعي الأيام وتنهشه ذئاب الليالي يظل مغروراً بالأيام والليالي . ولكن اسمعي يا سلمى ، اسمعيني جيداً ، أليس أمامنا غير الفراق لنتقي صغارة الناس وشروهم ؟ هل سدت أمامنا سبل الحب والحياة والحرية فلم يبق غير الاستسلام إلى مشيئة عبيد الموت ؟

فأجابت بلهجة يساورها القنوط والحسرة : لم يبق أمامنا غير الوداع والتفرق .

فأخذت يدها وقد تمردت روحي في داخلي وتبدد الدخان عن شملة فتوتي ، فقلت متهيجاً : قد استسلمنا طويلاً إلى أهواء

الناس يا سلمى ... منذ تلك الساعة التي جمعتنا حتى الآن ونحن نتقاد الى العميان ونركع أمام أصنامهم . منذ عرفتكم ونحن في يد المطران بولس غالب مثل كرتين يلعب بنا كيفما أراد ويقذفنا حيثما شاء ، فهل نبقى خاضعين لديه محققين الى ظلمة نفسه حتى يلوكننا القبر وتبتلعنا الأرض ؟ هل وهبنا الله نسمة الحياة لنضعها تحت أقدام الموت ، وأعطانا الحرية لنجعلها ظلاً للاستعباد ؟ ان من يخذ نار نفسه بيده يكون كافراً بالسما التي اوقدتها . ومن يصبر على الضيم ولا يتمرد على الظلم يكون حليف البطل على الحق وشريك السفاحين بقتل الابرياء . قد احببتك يا سلمى واحببتني ، والحب كنز ثمين يودعه الله النفوس الكبيرة الحساسة ، فهل نرمي بكنزنا الى حظائر الخنازير لتبعثره بأفوقها وتذريه بأرجلها ؟ امامنا العالم مسرحاً واسعاً مملوءاً بالمحاسن والفرائب ، فلماذا نسكن في هذا النفق الضيق الذي حفره المطران وأعوانه ؟ امامنا الحياة وما في الحياة من الحرية وما في الحرية من الغبطة والسعادة ، فلماذا لا نخلع النير الثقيل عن عاتقينا ونكسر القيود الموثقة بأرجلنا ونسير الى حيث الراحة والطمانينة ؟ قومي يا سلمى نذهب من هذا المعبد الصغير الى هيكل الله الاعظم . هلمي نرحل من هذه البلاد وما فيها من العبودية والغباوة الى بلاد بعيدة لا تظالمها أيدي اللصوص ولا يبلغها لهات الأبالسة . تعالي نسرع الى العناطىء مستترين بوشاح الليل فنعتلي سفينة تقلنا الى ما وراء البحار وهناك نحييا حياة جديدة مكتنفة

بالطهر والتفاهم ، فلا تنفثنا الثعابين بأنفاسها ، ولا تدوبسنا الضواري بأقدامها . لا تترددني يا سلمى . فهذه الدقائق اثمن من تيجان الملوك واسمى من سرائر الملائكة . قومي لتبضع عمود النور فيقودنا من هذه الصحراء القاحلة الى حقول تنبت الأزاهر والرياحين .

فهزت رأسها وقد شخصت عيناها بشيء غير منظور في فضاء ذلك الهيكل ، وسالت على شفتيها ابتسامة محزنة تعلن ما في داخل نفسها من الشدة والألم ، ثم قالت بهدوء : لا ، لا يا حبيبي ان السماء قد وضعت في يدي كأساً مفعمة بالخل والعلقم وقد تجرعتها صرفاً ولم يبق فيها غير قطرات قليلة سوف أشربها متجلدة لأرى ما في قعر الكأس من الأسرار والخفايا . أما تلك الحياة الجديدة العلوية المكتنفة بالمحبة والراحة والطمأنينة فأنا لا استحقها ولا أقوى على احتمال أفراسها وملذاتها ، لأن الطائر المكسور الجناحين يدب متنقلاً بين الصخور ولكنه لا يستطيع ان يسبح محلقاً في الفضاء ، والعيون الرمداء تحدق الى الأشياء الضئيلة ولكنهم لا تقوى على النظر الى الأنوار الساطعة ، فلا تحدثني عن السعادة لان ذكرها يؤلمني كالتعاسة ، ولا تصور لي الهناء لأن ظله يخيفني كالشقاء ... ولكن انظر إليّ لأريك الشعلة المقدسة التي أوقدتها السماء بين رماد صبري .. أنت تعلم بأنني أحبك محبة الأم وحيدتها ، وهي المحبة التي علمتني أن أحملك حتى ومن

الأجنحة المتكسرة (٧)

نفسي . هي المحبة المطهرة بالنار التي توقفتني الآن عن اتباعك
الى أقاصي الأرض وتجعلني أميت عواطفني وميولي لكي تحيا
أنت حراً نزيهاً وتظل في مأمن من لوم الناس وتقولاتهم
الفاسدة . ان المحبة المحدودة تطلب امتلاك المحبوب ، أما
المحبة غير المتناهية فلا تطلب غير ذاتها . المحبة التي تجيء بين
بقضة الشباب وغفلته تستكفي باللقاء وتقنع بالوصل وتنمو
بالقبل والعناق ، أما المحبة التي تولد في احضان اللانهاية وتهبط
مع أسرار الليل فلا تقنع بغير الأبدية ولا تستكفي بغير
الخلود ولا تقف متهيبة أمام شيء سوى الالهية ... عندما
عرفت بالأمس ان المطران بولس غالب يريد أن يمنعني عن
الخروج من منزل ابن اخيه ويسلبني اللذة الوحيدة التي عرفتها
مذ تزوجت ، وقفت أمام نافذة غرفتي ونظرت نحو البحر
مفكرة بما وراءه من البلاد الواسعة والحرية المعنوية والاستقلال
الشخصي ، وتخيلت نفسي عائشة بقربك ، محاطة بأخيلة
روحك مغمورة بانعطافك ، ولكن هذه الاحلام التي تنير
صدور النساء المظلومات وتجعلنهن يتمردن على التقاليد الباطلة
ليعشن في ظل الحق والحرية ، لم تمر في خاطري حتى جعلتني
استصغر نفسي واستضعفها وأرى محبتنا واهية محدودة لا
تستطيع الوقوف أمام وجه الشمس . فبكيت بكاء ملك
أصاع ملكه وغني فقد كنوزه ، ولكنني ما لبثت أن رأيت
وجهك من خلال دموعي وأبصرت عينيك محدقتين الي ،

فتذكرت ما قلته لي مرة وهو : هلمي يا سلمى نقف أمام الأعداء متلقين شفار السيوف بصدورنا ، فان صرعنا نمت كالشهداء وان تغلبنا نعش كالانطال . لأن عذاب النفس بشباتها امام المصاعب والمتاعب هو أشرف من تقهرها الى حيث الأمن والطمأنينة ... هذه الكلمات قلتها لي يا حبيبي عندما كانت أجنحة الموت ترفرف حول مضجع والدي ، وقد ذكرتها بالأمس وقد كانت أجنحة اليأس تصفق حول رأسي ، فتقويت وتشجعت وشعرت وانا في ظلمة السجن بنوع من الحرية النفسية التي تستهون الشدائد وتستصغر الأحزان ، ورأيت جبنا عميقاً كالبحر عالياً كالنجوم متسعاً كالفضاء . وقد جئت اليوم اليك وفي نفسي المتوجعة المنهوكه قوة جديدة وهي المقدرة على توضيحية الأمر العظيم للحصول على أمر أعظم ، توضيحية سعادتي بقربك لكي تبقى أنت شريفاً بعرف الناس بعيداً عن غدرهم واضطهادهم ... كنت اجيء بالأمس الى هذا المكان والقيود الثقيلة تغسل قدمي الضعيفتين ، اما اليوم فقد جئت شاعرة بعزم يهزأ بثقل القيود ويستقصر الطريق . كنت اجيء مثل طيف طارق خائف ، اما اليوم فقد جئت مثل امرأة حية تشعر بوجوب التوضيحية وتعرف قيمة الأوجاع وتريد ان تحمي من تحبه من الناس الأغبياء ومن نفسها الجائعة . كنت أجلس حذاءك مثل ظل مرتجف وقد أتيت اليوم لأريك حقيقي امام عشائرت المقدسة ويسوع المصلوب . انا شجرة نابتة في

الظل وقد مددت اغصاني اليوم لكي ترقعش ساعة في نور
النهار... قد جئت لأودعك يا حبيبي فليكن وداعنا عظيماً
وهائلاً مثل حبنا ، ليكن وداعنا كالنار التي تصهر الذهب
لتجعله اشد لمعاناً .

ولم تترك لي سلمى مجالاً للكلام والاحتجاج بل نظرت الي
وقد برقت عيناها فأحاطت أشعتها بوجداني واتشحت ملامح
وجهها بنقاب من الهيبة والجلال فبانَت كمليكَة توحى الصمت
والتخضع . ثم ارتمت على صدري بانعطاف كلي ما عهدته فيها
قبل تلك الساعة ، وطوقت عنقي بزندها الأملس وقبلت
شفتي قبلة طويلة عميقة محرقة أيقظت الحياة في جسدي ،
وأثارت الأسرار الخفية في نفسي ، وجعلت الذات الوضعية
التي أدغوها « أنا » تتمرد على العالم بأسره لتخضع صامته
أمام الناموس العلوي الذي اتخذ صدر سلمى هيكلًا ونفسها
مذبحاً .

* * *

ولما غربت الشمس وامتحت أشعتها الأخيرة عن تلك
الحدائق والبساتين انتفضت سلمى ووقفت في وسط الهيكل .
ونظرت طويلاً إلى جدرانها وزواياها كأنها تريد أن تسكب
نور عينيها على رسومه ورموزه ، ثم تقدمت قليلاً وجثت
خاشعة أمام صورة يسوع المصلوب وقبلت قدميه المكلومتين
مرات متوالية ثم همست قائلة :

ها قد اخترت صليبك يا يسوع الناصري وتركت مسرات
عشثروت وأفراحها . قد كللت رأسي بالأشواك بدلاً من الغار،
واغتسلت بدمي ودموعي بدلاً من العطور والطيوب ، وتجرعت
الحل والعلقم بالكأس التي صنعت للخمر والكوتر، فاقبلني بين
تابعيك الأقوياء بضعفهم وسيرني نحو الجلجلة برفقة مختاريك
المستكفين بأوجاعهم المنبوظين على كآبة قلوبهم .

ثم انتصبت والتفتت نحوي قائلة :

سأعود الآن فرحة الى الكهف المظلم حيث تتراكم
الأشباح الخفيفة، فلا تشفق عليّ يا حبيبي ولا تعزن من أجلي،
لأن النفس التي ترى ظل الله مرة لا تخشى بعد ذلك أشباح
الأبالسة ، والعين التي تكتحل بلمحة واحدة من الملائكة لا
تنفضها أوجاع هذا العالم .

وخرجت سلمى من ذلك المعبد ملتفة بملابسها الحريرية
وتركتني حائراً ضائعاً مفكراً مجذوباً إلى مسارح الرؤيا حيث
تجلس الآلهة على العروش وتدون الملائكة أعمال البشر وتتلو
الأرواح مأساة الحياة وتترنم عرائس الخيال باناشيد الحب
والحزن والخلود .

ولما صحوت من هذه السكره ، وكان الليل قد غمر
الوجود بأمواجه القائمة ، وجدتني هائماً بين تلك البساتين
مسترجعاً الى حافظتي صدى كل كلمة لفظتها سلمى ، معيداً
الى نفسي حركاتها وسكناتها وملامح وجهها وملامس

يديها ، حتى اذا ما اتضحت لي حقيقة الوداع وما سيحييه بعده من ألم الوحشة ومرارة الشوق جمدت فكرتي وتراخت خيوط قلبي وعلمت لأول مرة ان الانسان وإن ولد حرّاً يظل عبداً لقساوة الشرائع التي سنّها آباؤه وأجداده ، وان القضاء الذي نتوهمه مرّاً علوياً هو استسلام اليوم الى ما آتى أمس ، وتخضوع الغد الى ميول اليوم . وبم مرة فكرت منذ تلك الليلة الى هذا الساعة بالنواميس النفسية التي جعلت سلمى تختار الموت بدلاً من الحياة ، وبم مرة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمردين لأرى أيها أجل وأجمل ، ولكنني للآن لم أفهم سوى حقيقة واحدة وهي ان الاخلاص يجعل جميع الأعمال حسنة وشريفة ، وسلمى كرامه كانت الاخلاص متأنساً وصحة الاعتقاد متجسدة .

المنقذ



ومرت خمسة أعوام . على زواج سلمى ولم ترزق ولداً
ليوجد بكيانه العلاقة الروحية بينها وبين بعلها ويقرب
بإتسامته نفسيهما المتنافرتين مثلما يجمع الفجر أواخر الليل
وأوائل النهار .

والمرأة العاقر مكروهة في كل مكان لأن الأثانية تصور
لأكثر الرجال دوام الحياة في أجساد الأبناء فيطلبون النسل
ليظلموا خالدين على الأرض .

ان الرجل المادي ينظر الى زوجته العاقر بالعين التي يرى
بها الانتحار البطيء فيمقتها ويهجرها ويطلب حتفها كأنها
عدو غدار يريد الفتك به . ومنصور بك غالب كان مادياً
كالتراب وقاسياً كالفولاذ وطامعاً كالقبرة ، وكانت رغبته بان
يرث اسمه وسؤدده تكررهم بسلمى المسكينة وتحول محاسنها
في عينيه الى عيوب جهنمية .

ان الشجرة التي تنبت في الكهف لا تعطي ثمراً ، وسلمى
كرامه كانت في ظل الحياة فلم تثمر اطفالاً . ان البلب لا
يحوك عشاً في القفص كيلا يورث العبودية لفراخه ، وسلمى

كرامه كانت سجينه الشقاء فلم تقسم السماء حياتها الى أسيرين .
 إن أزاهر الأودية هي أطفال يدها انعطاف الشمس وشفف
 الطبيعة ، وأطفال البشر أزاهر يدها الحب والحنو ، فسلمى
 كرامه لم تشعر قط بأنفاس الحنو وملامس الانعطاف في ذلك
 المنزل الفخم القائم على شاطئ البحر في رأس بيروت ،
 ولكنها كانت تصلي في سكينه الليالي ضارعة أمام السماء
 لتبعث إليها بطفل يجفف بأصابعه الوردية دموعها ويزيل بنور
 عينيه خيال الموت عن قلبها .

وقد صلت سلمى متوجعة حتى مسلت الفضاء صلاة
 وابتهالاً ، وتضرعت مستغيثة حتى بدد صراخها الغيوم ،
 فسمعت السماء نداءها وبثت في أحشائها نغمة مختمرة بالحلاوة
 والعذوبة وأعدتها بعد خمسة أعوام من زواجها لتصيرها أمًا
 وتمحو ذلها وعارها .

الشجرة النابتة في الكهف قد أزهرت لتثمر .
 البلبل المسجون في القفص قد هم ليحوك عشًا من ريش
 جناحيه .

القيثارة التي طرحت تحت الاقدام قد وضعت في مهب
 نسيم المشرق ليحرك بأمواجه ما بقي من أوتارها .
 سلمى كرامه المسكينة قد مدت ذراعيها المكبلتين
 بالسلاسل لتقبل موهبة السماء .

وليس بين أفراح الحياة ما يضارع فرح المرأة العاقر عندما
 تهيئها النواميس الأزلية لتصيرها أمًا . كل ما في يقظة الربيع

من الجمال ، وكل ما في مجيء الفجر من المسرة ، يجتمع بين
أضلع المرأة التي حرمها الله ثم اعطاها .

لا يوجد نور أشد سطوعاً واصكراً لمعاناً من الأشعة التي
يبعثها الجنين السجين في ظلمة الاحشاء .

وكان نيسان قد جاء متنقلاً بين الروابي والمنحدرات
عندما تمت أيام سلمى لتلد بكرها ، وكان الطبيعة قد وافقتها
وعاهدتها فأخذت تضع حمل ازاهرها وتلف بأقمطة الحرارة
اطفال الأعشاب والرياحين .

مضت شهور الانتظار وسلمى تقرب الخلاص مثلما يترب
المسافر طلوع كوكب الصباح ، وتنظر الى المستقبل من وراء
دموعها فتراه مشعشعاً ؛ وقد طالما ظهرت الأشياء القائمة
متلعة من خلال الدموع .

ففي ليلة وقد طافت أشباح الظلام بين تلك المنازل في
رأس بيروت ، انطرحت سلمى على مضجع الخصاص
والأوجاع ، فانتصب الموت والحياة يتصارعان بجانب فراشها ،
ووقف الطبيب والقابلة ليقدما الى هذا العالم ضيفاً جديداً ،
وسكنت حركة عابري الطريق وانخفضت نغمة أمواج البحر
ولم يعد يسمع في ذلك الحي سوى صراخ هائل يتصاعد من
نوافذ منزل منصور بك غالب .. صراخ انفصال الحياة عن
الحياة .. صراخ محبة البقاء في فضاء اللاشيء والعدم ...
صراخ قوة الانسان المحدودة امام سكينه القوي غسيرة
المتناهية .. صراخ سلمى الضعيفة المنطرحة تحت أقدام

جبارين : الموت والحياة .

عندما لاح الفجر ولدت سلمى ابناً ، ولما سمعت اهلاله
فتحت عينيها المغلفتين بالأم ونظرت حواليتها فرأت الأوجه
متهللة في جوانب تلك الغرفة ... ولما نظرت ثانية رأت
الحياة والموت ما زالا يتصارعان بقرب مضجعا ، فعادت
وأغمضت هنيها وصرخت لأول مرة : يا ولدي .

ولفت القابلة الطفل بالأقطة الحريرية ووضعته حذاء أمه ؛
أما الطبيب فظل ينظر بعينين حزينتين نحو سلمى ويهز رأسه
صامتاً بين الدقيقة والأخرى .

وأيقظت نعمة الفرح بعض الجيران فجاءوا بملابس النوم
ليهنثوا الوالد بولده ، اما الطبيب فبقي ينظر بعينين كئيبتين
نحو الوالدة وطفلها .

وأسرع الخدم نحو منصور بك ليبشروه بقدم وارثه ويملأوا
أيديهم من عطاياها ، اما الطبيب فلبث واقفاً ينظر بعينين
ياقستين الى سلمى وابنها .

ولما طلعت الشمس قربت سلمى ولدها من ثديها ففتح
عينيها لأول مرة ونظر في عينيها واختلج وأغمضها لآخر
مرة ، فسدتا الطبيب وأخذه من بين ذراعيها وانسكبت على
وحنثيه دمعتان كبيرتان ثم همس في سره قائلاً : هو زائر
رائع ! .

مات الطفل وبسكان الحي يفرحون مع الوالد في القاعة
الكبرى ويشربون نخبه ليعيش طويلاً ، وسلمى المسكينة تحددق الى

الطبيب وتصرخ قائلة: أعطني ولدي لأضمه ، ثم تحديق ثانية
فترى الموت والحياة يتصارعان بجانب سريرها .

مات الطفل ورنات الكؤوس تنمو وتتكاثر بين أيدي
الفرحين بمجيئه .

ولد مع الفجر ، ومات عند طلوع الشمس ، فأني بشري
يستطيع أن يقيس الزمن ليخبرنا ما إذا كانت الساعة التي تمر
بين مجيء الفجر وطلوع الشمس هي أقصر من الدهر الذي يمر
بين ظهور الأمم وتواريتها ؟

ولد كالفكر ، ومات كالتهيدة ، واختفى كالظل ، فأذاق
سلى كرامه طعم الأمومة ولكنه لم يبقَ ليسعددها ويزيل يد
الموت عن قلبها .

حياة قصيرة ابتدأت بنهاية الليل وانقضت بإبتداء النهار ،
فكانت مثل قطرة الندى التي تسكبها أجفان الظلام ثم تجفها
ملايس النور .

كلمة لفظتها النواميس الأزلية ، ثم ندمت عليها وأعادتها
الى سكينه الأبدية ...

لؤلؤة قذفها المد إلى الشاطئ . ثم جرفها الجزر الى
الأعماق : ...

زنبقة ما انبتقت من أكهام الحياة حتى انسحقت تحت
أقدام الموت ..

ضيف عزيز ترقت سلى قدومه ولكنه ، ما حل حتى
ارتحل ، وما فتح مصراعي الباب حتى اختفى .

جنين ما صار طفلاً حق صار تراباً — وهذه حياة الانسان
بل حياة الشعوب ، بل حياة الشمس والأقمار والكواكب ..
وحولت سلمى عينيها نحو الطبيب وتهدت بشوق جارح ثم
صرخت قائلة :

أعطني ابني لأضمه بذراعي .. أعطني ولدي لأرضعه ...
فكس الطبيب رأسه وقال والنصات تخرسه :
قد مات طفلك يا سيدتي فتجلدي وتصبري لكي
تعيشي بعده .

فصرخت سلمى بصوت هائل ، ثم سكنت هنيهة ، ثم
ابتسمت ابتسامة فرح ومسرة ، ثم تهلل وجهها كأنها عرفت
شيئاً لم تكن تعرفه وقالت بهدوء : أعطني جثة ولدي ...
قرّبه مني ميتاً .

فحمل الطبيب الطفل الميت ووضع بين ذراعيها فضمته
الى صدرها وحولت وجهها نحو الحائط وقالت تخاطبه :
قد جئت لتأخذني يا ولدي . جئت لتدلني على الطريق
المؤدية الى الساحل . ها أنذا يا ولدي فسر أمامي لنذهب من
هذا الكهف المظلم .

وبعد دقيقة دخلت أشعة الشمس من بين ستائر النافذة
وانسكبت على جسدين هامدين منطرحين على مضجع تخفّره
هيبة الأمومة وتظليله أجنحة الموت .

فخرج الطبيب باكياً من تلك الغرفة ، ولما بلغ القاعة
الكبرى تبدلت تهاليل المهنيين بالصراخ والعيويل ، أما

منصور بك غالب فلم يصرخ ولم يتنهد ولم يذرف دمعة ولم يفه
بكلمة بل لبث جامداً منتصباً كالصنم قابضاً بيمينه على كأس
الشراب .

* * *

في اليوم التالي كفنت سلسى بأثواب عرسها البيضاء ووضعت
في تابوت موسى بالمحمل الناصع ، أما طفلها فكانت أكفانه
أقمطته وتابوته ذراعى أمه وقبره صدرها الهادىء .
حملوا الجثتين في نعش واحد ومشوا ببطء متلف يشابه
طرقات القلوب في صدور المنازعين ، فسار المشيعون وسرت
بينهم وهم لا يعرفونني ولا يدرون ما بي .
بلغوا المقبرة فانتصب المطران بولس غالب يرقل ويعزم ،
ووقف الكهان حوله ينغمون ويسبحون وعلى وجوههم الكالحة
نقاب من الخلو والغفول .
ولما أنزلوا التابوت إلى أعماق الحفرة همس أحد الواقفين
قائلاً :

هذه أول مرة رأيت جسدين يضمها تابوت واحد . . .

وقال آخر :

كان طفلها قد جاء ليأخذها وينقذها من مظالم زوجها

وقساوته .

وقال آخر :

تأملوا بوجه منصور بك فهو ينظر الى الفضاء بعينين

زجاجيتين كأنه لم يفقد زوجته وطفله في يوم واحد .

وقال آخر :

غداً يزوجه عمه المطران ثانية من امرأة أخزى أوفر ثروة
وأقوى جسماً .

وظل الكهان يرتلون ويسبحون حتى فرغ حفار القبور
من ردم الحفرة فأخذ المشيعون إذ ذاك يقتربون واحداً واحداً
من المطران وابن أخيه يصبرونها ويؤاسونها بمستعذبات الكلام ،
أما أنا فبقيت واقفاً منفرداً . وحدي وليس من يعزيني على
مصيبتى ، كأن سلمى وطفلها لم يكونا أقرب الناس إليّ .

عاد المشيعون وبقي حفار القبور منتصباً بجانب القبر
الجديد ، وفي يده رفشه ومحفرة ، فدلوت منه وسألته قائلاً :
أتذكر أين قبر فارس كرامه ؟

فنظر إليّ طويلاً ثم أشار نحو قبر سلمى وقال :

في هذه الحفرة قد مدت ابنته على صدره ، وعلى صدر
ابنته قد مدت طفلها ، وفوق الجميع قد وضعت التراب بهذا
الرفش .

فأجبتة : وفي هذه الحفرة أيضاً قد دفنت قلبي أيها الرجل ،
فما أقوى ساعديك !

ولما توارى حفار القبور وراء أشجار السرو خائفي الصبر
والتجملد فارتميت على قبر سلمى أبكيها وأرثيها .